

كتاب الهلال

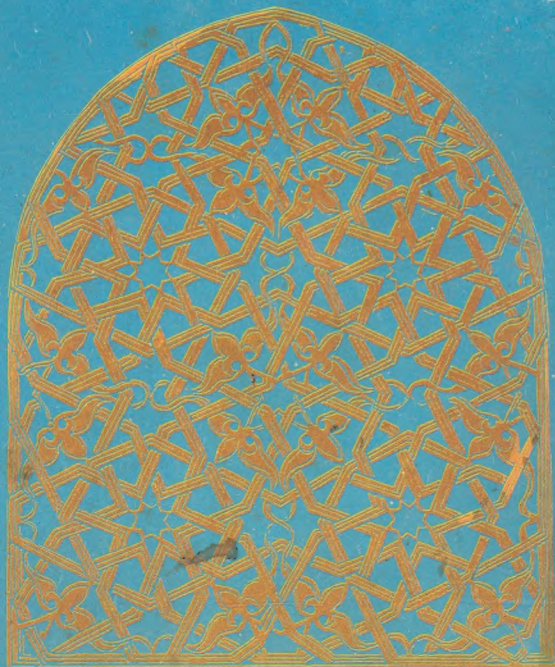


الرسول

سلسلة
ثقافية
شهرية

صلى الله عليه وسلم

لمحات من حياته وأنوار من هديه



الدكتور عبد الحليم محمود

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

جريدة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبرى أبوالمجد

مدير التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٢٤٤ - رمضان ١٣٩٩ - أغسطس ١٩٧٩

No. 344 — August 1979

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

القاهرة ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى - ١٢ عددا - في جمهورية مصر العربية
جنهان صريان بالبريد العادى - وبلاد اتحادى البريد العربى
والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى - وفى
سائر أنحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا
بالبريد الجوى .

ر الهلال فى ج. م. ع.

بنك مصر فى لاهى مؤسسة

الاسعار الموضحة اعلاه

مكتاب أهل لادن



مسلمة شهيدة لنشر الثقافة بين الجميع

الرسول

صلى الله عليه وسلم

لمحات من حياته
وانوار من هديه



بقلم
الدكتور عبد الحليم محمود



دار الهلال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد
الأنبياء والمرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ،
والداعين بدعوته الى يوم الدين .

« يا أيها النبي انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا .
وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن
لهم من الله فضلا كبيرا . ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع
اذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا . » .

« صدق الله العظيم »

مقدمة الكتاب

(١)

يتحدث القرآن الكريم عن رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، فى كثير من سوره ، يقول سبحانه :
« يا أيها النبى أنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا .
وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا » (١) .

ويقول سبحانه :

« من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا » (٢) .

ويقول سبحانه :

« قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » (٣) .

ومن أجل هذه الصلة الالهية برسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أرشدنا الله - سبحانه وتعالى - إلى اتخاذ الرسول أسوة ، فقال سبحانه :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » (٤) .

(٢) النساء : ٨٠

(٤) الاحزاب : ٢١

(١) الاحزاب : ٤٥ ، ٤٦

(٣) آل عمران : ٣١

بل أمرنا سبحانه أن نأخذ ما آتانا ، وإن ننتهي عما
 نهانا عنه ، وهددنا إذا لم نلتزم ذلك ، فقال سبحانه :
 « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ،
 واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب » (١) .
 أما السر في ذلك فهو :

١ - أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه : لا ينطق
 عن الهوى ولا ينحرف عن صراط الله المستقيم ، ولقد
 أقسم الله تعالى على ذلك فقال سبحانه :

« والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى .
 وما ينطق عن الهوى ، أن هو إلا وحى يوحى » (٢) .

٢ - كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في جميع
 أحواله حركة وسكونا ، إشارة ونطقا ، قلبا وقالباً ، يمثل
 القرآن الكريم ، وقد كان صلوات الله وسلامه عليه تطبيقاً
 للقرآن ، لقد لبس القرآن ظاهراً وباطناً ، لقد كان قرآناً .
 ولقد وصفته السيدة عائشة - رضى الله عنها - وصفاً
 دقيقاً حينما سئلت عن خلقه ، فقالت : « كان خلقه
 القرآن » .

ومن كان خلقه القرآن كان أسوة ، وكان قدوة ، وكان
 على خلق عظيم ، ومن هنا وصف الله سبحانه وتعالى له
 إذ يقول :

« وإنا أنزلناه على خلق عظيم » (٣) .

(٢)

والحق ، أننا حينما نريد أن ندون صورة واضحة تامة
 عن رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، من الطريق

(٢) النجم : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

(١) الحشر : ٧

(٣) القلم : ٤

الوحيد لذلك ، انما هو الاخاطة بالقرآن احاطة واضحة تامة ، والاحاطة بالقرآن على هذا النسق ليست من السهولة بمكان ، بل ليست بممكنة : فالقرآن في كل يوم يتفتح عن معان جديدة للانسانية ، ويتفتح عن معان جديدة للشخص المتأمل المتدبر : وهذه المعانى الجديدة : - انسانية عامة ، او فردية شخصية - انما هي ايضاح وتفسير للصورة النبوية الكريمة .

والعكس ايضا صحيح ، فان المتدبر المتأمل في الصورة النبوية الكريمة عن طريق السيرة الصحيحة ، والاحاديث المعتمدة ، يفهم عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كل يوم جديدا ، وهذا الفهم انما هو تفسير وايضاح لجوانب من القرآن الكريم .

لقد امتاز الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالقرآن - كما قدمنا - روحا وقلبا وجسما ، وامتزج القرآن به عقيدة وأخلاقا وتشريعا : فكان ، صاوات الله وسلامه عليه : قرآنا يسير في الناس ، وكان القرآن روحا ينتقل ، وكان قلبا ينبض ، وكان لسانا ينطق بالهداية والارشاد .

ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه حريصا كل الحرص على أن يكون خلق الأمة الاسلامية القرآن ، لقد عمل لذلك طيلة بعثته .

ويحدثنا القرآن الكريم عن موقف الرسول صلوات الله وسلامه عليه من الأمة فيقول سبحانه :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » (١) . صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله .

(١) التوبة : ١٢٨

ويتحدث صلوات الله وسلامه عليه عن حرصه الشديد على هداية أمته فيقول :

« مثلى ومثلكم : كمثل رجل أوقد نارا - فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها ، وهو ينبهن عنها ، وأنا أخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي » .

هذه هي صلة الرسول صلى الله عليه وسلم بربه ، وهذه هي صلته بأمته .

لقد ارتفع صلوات الله وسلامه عليه الى السماء بل وتجاوزها الى سسدرة المنتهى ، ورأى من آيات ربه الكبرى ، لقد ارتفع الى الأفق الأعلى وتجاوز بذلك النهايات الكونية ، لقد كان فعلا : أدنى من قلب قوسين فانغمس في الأفق الأعلى وتلقى عن الله مباشرة كيفية الصلاة به وهي الصلاة ، ثم ... ثم انبسط الى الأرض سراجا منيرا ، رءوفا رحيفا ، هاديا ، يدعو الى الله على بصيرة هو ومن اتبعه .

يقول أحد الصالحين : « سعد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، الى السماء ثم عاد الى الأرض ، أقسم بالله ، لو صعدت الى السماء لما حاولت العودة الى الأرض مرة أخرى » .

بيد أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه نبي ورسول فهو متصل بالله دائما : انه في السماء على الدوام ، وهو متصل بالبشر ، يؤدي رسالة السماء كاملة غير منقوصة . انه كان على حد تعبير القرآن : « بشرا رسولا » فهو بشريته مع الناس ، وهو بسره مع الله : انه مع الناس بأرادة الله وتوجيهه وأمره ، انه مع الناس بكلمة الله ورسالته ، انه مع الناس رسول من قبل الله .
وبهذه المعاني كلها يمكننا أن نقول : انه دائما مع الله

ويمكننا أن نقول : انه - منذ اللحظة الاولى للبعثة - لم ينزل الى الأرض قط ، وانما كان دائما مع الله سبحانه وتعالى ، فهو صلوات الله وسلامه عليه يبيت عند ربه ، يقول صلى الله عليه وسلم :
 « لست كهيتكم : أبيت عند ربي ... » .

(٣)

« قل : انما انا بشر مثلكم يوحى الى » (١) .
 انه صلوات الله وسلامه عليه : « بشر » وما يجول في خلد مسلم قط أن يخرج عن البشرية ، ولكنه صلوات الله وسلامه عليه « بشر يوحى اليه » .
 وما يتأتى قط أن يوحى الله الى بشر الا اذا أصبح وكأنه قطعة من النور : صفاء نفس ، وطهارة قلب ، وتزكية روح .
 فمتمهى القول فيه انه بشر ، وانه خير خلق الله كلهم

(٤)

وبعض الناس حينما يقرأ القرآن الكريم ، فتمر عليه الآية الكريمة :

« قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى » (٢) .
 يقف عند كلمة : (بشر) فيحاول التركيز عليها وتوجيه الانتباه كله اليها ، وتحويل الانتظار كلها نحوها ، فيتحدث عن خصائص البشرية العادية ويبرزها ، ويندفع في هذا الاتجاه المنحرف اندفاعا لا يتناسب قط مع قوله تعالى : « يوحى الى » بل انه في اندفاعته الهوجاء ينسى « يوحى الى » ويهملها اهمالا .

(١ ، ٢) الكهف : ١٦٠

انه ليس بنادر في العصر الحاضر أن يجروا بعض الناس فيحدث عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وعن خطئه - معاذ الله - في الرأي ، وعن أصابته فيه ، ويسير هذا البعض في حديثه أو في كتابته مستنتجا ومستنبطا وحاكما ، وينسى في كل ذلك :

« وما ينطق من الهوى (١) ، وينسى في كل ذلك :

« يوحى الى » ، وينسى : « لست كهيتكم » ، وينسى : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » .

وينسى أن بعض المسائل يمكن أن تكون لها حلول مختلفة ، كلها صحيحة : بعضها رفيق رحيم ، وبعضها عادل حاسم ، وأن الله سبحانه وتعالى قد بين للأمة الإسلامية أن رسوله صلوات الله وسلامه عليه - وهو على صواب دائما - إنما يتخذ الحل الذي يتناسب مع ما حلاه الله به من الرأفة ، وما فطره عليه سبحانه من الرحمة ، وهو الحل الذي يتناسب مع طابع الرسالة الإسلامية العام :

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (٢) .

والله سبحانه ببيانه ذلك في هذه المواضع التي كان من الممكن أن يقف فيها الرسول صلوات الله وسلامه عليه مع العدالة الحاسمة ، فعدل من ذلك الى الرأفة الرحيمة . . . أن الله سبحانه وتعالى ببيانه ذلك ، إنما يمدح الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ويبين أن منزع الرحمة إنما هو الغالب عليه ، صلوات الله وسلامه عليه .

ولم يبلغ الله سبحانه اتجاهها عاما سار فيه الرسول ، ولم ينقض قضية كلية أقرها ، صلوات الله وسلامه عليه ، ولم ينف مبدأ أثبتته رسوله ، فما كان صلوات الله وسلامه

عليه يسير الا على هدى من ربه ، وعلى بصيرة من أمره ،
وقد شهد الله له بذلك حيث قال :

«وانك لتهدى الى صراط مستقيم، صراط الله...» (١).

وما فعل الله في كل ما تمسك به المنحرفون ، وتمسك
فيه المتمحكون الا ببيان رحمة الرسول، صلوات الله وسلامه
عليه ، ورأفته : أى أنه سبحانه كان يبين في هذه المواطن
فضله صلوات الله وسلامه عليه وأنه - كما وصفه سبحانه
- : على خلق عظيم ، والبون شاسع بين هذه الوجهة
الربانية ، وبين التحدث عن خطأ وصواب ، وأوضاع بشرية
يركز عليها ولا يلتفت لسواها .

ولنضرب لذلك مثلا : ان الدين ديدنهم الجدل يتحدثون
كثيرا عن قوله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم ؟ » (٢)
ويقذفون مباشرة بقولهم : ان العفو لا يكون الا عن خطأ .

ولهؤلاء نقول : ان الاساليب العربية فيها من أمثال
هذا الكثير ، ومنها قولهم مثلا : غفر الله لك ، لم تشق
على نفسك كل هذه المشقة ؟ .

عفا الله عنك ، لم تعنى نفسك في سبيل هؤلاء ؟ وكان
القائل يقول :

رضى الله عنك ، لم ترهق نفسك كل هذا الإرهاق ؟ .
ان الآية القرآنية من هذا الوادى .

وضم هذه الآية الكريمة الى أختها التى فى سورة
النور : « فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت
منهم » (٣) تجسد المعنى واضحا جليا ، وهو ان الله
سبحانه ، فوض الأمر لنبيه ، صلوات الله وسلامه عليه ،

(٢) التوبة : ٤٣

(١) الشورى : ٥٢ ، ٥٣

(٣) النور : ٦٢

فى ان ياذن لهم او لا ياذن .

ليس النبى اذن معاتباً بهذه الآية - وحاشاه - بل كان صلى الله عليه وسلم مخيراً ، فلما اذن لهم أعلمه الله أنه لو لم ياذن لهم لقعدوا، ولتخلفوا بسبب نفاقهم ، وأنه مع ذلك لا حرج عليه فى الاذن لهم ، انها آية مدح للرسول غاية فى الرقة ... ومن غير شك قد صدر الاذن لهم عن قلب رحيم ، وعن هذا القلب الرحيم ، وعن هذه الرحمة الفياضة ، كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يصدر فى أحكامه ، وما كان فى ذلك الا متبعاً لقوله تعالى :

« وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » (١) .

وهكذا الامر فى كل ما يمارى فيه الممارون .

(٥) .

ومع ذلك فاننا نريد ان نزيد الامر وضوحاً فى الفرق بين من يركز على « بشر » ومن يركز على « يوحى الى » لأهميته الكبرى فنقص القصة التالية ، ذات المفزى العميق ، والقصة يرويها ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه فى شرحه لقصيدة ولى الله : (أبو مدين) رضى الله عنه ، يقول :

زار بعض السلاطين ضريح أبى يزيد رضى الله عنه - وقال : هل هنا أحد ممن اجتمع بأبى يزيد ؟ .

فأشير الى شيخ كبير فى السن كان حاضراً هناك .

فقال له : هل سمعت شيئاً من كلام أبى يزيد ؟ .

فقال : نعم سمعته قال : « من زارنى لا تحرقه النار » .

فاستغرب السلطان ذلك الكلام ، فقال : كيف يقول

(١) الانبياء : ١٠٧

أبو يزيد ذلك ، وأبو جهل رأى النبی صلى الله عليه وسلم
وتحرقه النار ؟ .

فقال ذلك الشيخ للسلطان : أبو جهل لم ير النبی صلى
الله عليه وسلم ، إنما رأى (یتیم أبی طالب) ، ولو رآه
صلى الله عليه وسلم لم تحرقه النار .

ففهم السلطان كلامه وأعجبه هذا الجواب منه ، اى
انه لم يره بالتعظيم والاکرام والأسوة ، واعتقاد انه رسول
الله ، ولو رآه بهذا المعنى لم تحرقه النار ، لكنه رآه
باحترار ، واعتقاد انه (یتیم أبی طالب) ، فلم تنفعه تلك
الرؤية .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن أبی يزيد رضى الله عنه ،
وانما نريد ان نتحدث عن كلمة الشيخ للسلطان من ان ابا
جهل لم ير النبی صلى الله عليه وسلم وانما رأى (یتیم
أبی طالب) .

هذه النظرة لأبى جهل هى التى نريد ان يتنزه المؤمنون
عنها .

والمؤمنون — بحمد الله — لا يقعون فى هذا الالم
متممدين ، وانما يتسلل هذا الالم الى بعض النفوس فى
صورة لا شعورية ، عندما يركز بعضهم على بشرية الرسول
صلوات الله وسلامه عليه — وكأنه لا شيء فيه غير
البشرية .

ومن الغريب انهم حينما يتحدثون عن البشرية ،
ويركزون عليها يعتبرون انفسهم تقدميين متطورين ، وقائهم
ان هذه النظرة لأبى جهل انما هى النظرة التى يتبناها
المستشرقون والمبشرون فى العصر الحاضر ، ليقولوا من
شأن الرسول فى نظر مواطنيهم .

وما كان المستشرقون فى تركيزهم على بشرية الرسول

الا متابعين في ذلك زعيمهم الاكبر - في هذه النزعة - وهو أبو جهل . وكل من يركز على بشرية الرسول من الكتاب المسلمين انما هو بذلك يتابع المستشرقين والمبشرين في هذه النزعة ، او يتابع ابا جهل وهم في ذلك ليسوا بتقديمين ولا متطورين ، وانما هم من الرجعيين حيث ترجع فكرتهم الى ما قبل ثلاثة عشر قرنا مضت ، يتزعمهم فيها أبو جهل كله ، وأبو الظلمة القلبية كلها !! .

ليس هناك اذن اجتهاد وخطا وصواب ، وانما هناك تصرفات تصدر عن الكرم والرحمة ، فيتحدث الله مبينا طبيعة رسوله الكريمة ، وفطرته الرحيمة ورأفته الواضحة ، ويبين في الوقت نفسه : أن بعض هؤلاء الذين فاضت عليهم هذه الرحمة ليسوا جديرين بها وليسوا أهلا لها ، لفساد فطرتهم وسوء نواياهم .

من الحقائق المعروفة أن الانسان يميل الى التركيز على : « بشر » أو على : « يوحى الى » حسب قوة شعوره الديني وضعفه ، فالذي لا ايمان له لا يرى الا البشرية ، ومن ضعف ايمانه يركز على البشرية ، ويخفف التركيز على البشرية كلما قوى الايمان ، ويزداد التركيز على : « يوحى الى » كلما ازداد الايمان ، حتى يصل الانسان الى الا يرى او لا يكاد يرى الا « يوحى الى » .

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله .
وهناك اذن طرفان يمثلان فريقين من الناس . طرف : « بشرا » أو ، « قل : انما انا بشر مثلكم » .

وطرف : « يوحى الى » أو « رسولا » ، وبين الطرفين يتأرجح عدد لا يحصى من المسلمين نزولا وارتفاعا ، انخفاضا وسموا .

وان مقياس الايمان قوة وضعفا ، مقياس درجة

الايمان الذى لا يخطئ ، انما هو ما وقر فى القلب او غلب عليه ، من البشرية او من : « يوحى الى » انهما يمثلان ما يوضع فى كفتى ميزان .

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم
واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

(٦)

ولعلك تتساءل الآن عن هذا الذى لا يرى او لا يكاد يرى ، الا : « يوحى الى » ماذا يرى ؟ وكيف يرى ؟ .

ما هى النظرة التى تنأى بنا عن « يتيم أبى طالب » لتقربنا من « الاسوة » ؟ كيف ينبغى ان تكون نظرة المؤمن لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ؟ .

والواقع ان الصورة الكاملة عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يلزم لها ان يصل الانسان الى مستواة صلوات الله وسلامه عليه او الى ما يقرب من مستواة وذلك لا يتأتى .

بيد انه اذا استحال ذلك فانه من الميسور ان نورد صورتين ، احدهما : جاهلية ، والاخرى اسلامية . والصورتان لسيدنا عمر رضى الله عنه .

اما الصورة الاولى : فانها « يتيم أبى طالب » كان سيدنا عمر ، يراها قبل ان يهديه الله للاسلام ، واراد سيدنا عمر ان يقتل « يتيم أبى طالب » حتى لا تتفرق كلمة القرشيين بسببه ، ولكن دعاء رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « اللهم أعز الاسلام بأحب هذين الرجلين اليك : بعمر بن هشام ، او بعمر بن الخطاب » كانت قد استحسنت لخير سيدنا عمر فهداه الله للاسلام ، ولازم الرسول صلوات الله وسلامه عليه فناله من بركاته ومن

خير ما هيأه لأن يكون الخليفة الثاني للأمة الإسلامية أجمع
وان يعز الله الاسلام به في حياة الرسول صلوات الله
وسلامه عليه ، وبعد وفاته .

ان سيدنا عمر هذا الذي لم يكن للشيطان عليه من
سبيل ، والذي كان اذا سلك طريقا سنك الشيطان طريقا
آخر : خشية منه ورهبة ، والذي نزل القرآن احيانا
مصدقا لما رآه ، ان سيدنا عمر صاحب : « يا سارية
الجبل » يرسم لنا صورة اسلامية لسيدته وحبيبته وصديقه
ونبيه ورسوله صلوات الله وسلامه عليه .

ولكن هذه الصورة : هي صورة سيدنا عمر ، انها
تتناسب مع مستوى سيدنا عمر وهو من غير شك عظيم .
ماذا كان يمكن ان يقول سيدنا ابو بكر رضوان الله
عليه ؟ وماذا كان يمكن ان يقول سيدنا علي رضي الله عنه ؟
وماذا كان يمكن ان يكون وصف سيدنا جبريل لو وصفه ؟ .
ان الله سبحانه وتعالى يقول عنه صلوات الله وسلامه
عليه :

« وانك لعلى خلق عظيم » (١) .

وما كانت كلمة السيدة عائشة رضوان الله عليها : « كان
خلقه القرآن » الا تفسيرا لما اشارت اليه الآية القرآنية
الكريمة ، ايمكنك ان تتصور المدى الذي تبلغه الآية
الكريمة ، وتفسير السيدة عائشة لها ؟ ايتاني لك أن
تحيط بالقرآن ، أستغفر الله وأتوب اليه .

ولنعد الى الصورة التي حاول رسمها صاحب :
« ياسارية الجبل » ، لنعد اليها لنثبتها شارحين لبعض

(١) القلم : ٤

حوادثها ، موضحين لبعض انبائها ، وسنجعل الايضاح بين اقواس .

بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمع سيدنا عمر يبكي ويقول :

« بأبى انت وامى يا رسول الله ، لقد كان جلع تخطب الناس عليه ، فلما كثر الناس اتخذت منبرا لتسمعهم ، فحن الجلع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن ، فأمتك كانت أولى بالحنين اليك لما فارقتها » . يروى البخارى ومسلم ، وكتب السنة كلها تقريبا وكتب السيرة « حادث حنين الجلع » بعدة روايات ، وننقل هنا احدى روايات البخارى :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان النبی صلى الله عليه وسلم يخطب الى جلع ، فلما اتخذ المنبر تحول اليه الجلع فحن الجلع فأتاه فمسح يده عليه » .
بأبى انت وامى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن جعل طاعتك طاعته ، فقال عز وجل :
« من يطع الرسول فقد أطاع الله » (١) .

بأبى انت وامى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن بعثك آخر الانبياء ، وذكرك في أولهم ، فقال عز وجل :

« وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم » (٢) .

بأبى انت وامى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون :

« يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولاً » (١) .

بابي أنت وأمي يا رسول الله ، لئن كان موسى ابن عمران أعطاه الله حجراً تنفجر منه الأنهار فماذا « فليس ذلك » بأعجب من أصابعه حين نبع منها الماء صلى الله عليك يا سيدى يا رسول الله .

ان نبع الماء من بين أصابعه الشريفة صلوات الله وسلامه عليه ، لم يحدث مرة واحدة وإنما حدث عدة مرات ، رواه البخارى ومسلم وغيرهما من كتب السنة ، وروته كتب السيرة بروايات عدة ، فى ظروف مختلفة ، مما يدل على كثرة حدوثه ، وننقل هنا احدى روايات الامام البخارى :

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : « عطش الناس يوم الحديبية ، والنبي صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة ، فتوضأ فجهش الناس » فأسرعوا وتكاثروا نحوه فقال : « مالكم » ؟ .

قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب الا من بين يديك . فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه ، كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا . قلت : « كم كنتم » ؟ .

قال : « لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة » . بابي أنت وأمي يا رسول الله ، لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ، ورواحها شهر ، فماذا بأعجب من البراق حين سريت عليه الى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالابطح ، صلى الله عليك : « سنتحدث فى فصل خاص عن الاسراء والمعراج » .

بابي أنت وأمي يا رسول الله : لئن كان عيسى بن مريم

أعطاه الله ، أحياء الموتى ، فماذا بأعجب من الشاة
المسمومة حين كلمتك وهى مشوية فقالت لك الذراع :

« لا تأكلنى فانى مسمومة » .

يروى ابن سعد فى طبقاته :

أخبرنا سعيد بن محمد الثقفى ، عن محمد بن عمر ،
عن أبى سلمة قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
لا يأكل الصدقة ، ويأكل الهدية ، فأهدت اليه يهودية
شاة مصلبة ، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها
هو وأصحابه ، فقالت : انى مسمومة ، فقال لأصحابه :
« ارفعوا أيديكم ، فانها قد أخبرت أنها مسمومة » قال :
فرفعوا أيديهم ، قال : فمات بشر بن البراء ، فأرسل
اليها الرسول صلى الله عليه وسلم فقال :

« ما حملك على ما صنعت » فقالت : أردت أن أعلم أن
كنت نبيا لم يضرك وإن كنت ملكا أرحت الناس منك ،
قال : فأمر بها فقتلت اهـ .

بابى انت وامى يا رسول الله ، لقد دعا نوح على قومه
فقال :

« رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا (١) » .

ولو دعوت علينا بمثلها لهاكنا كلنا : فلقد وطئ ظهرك
— تروى كتب السيرة أن عقبة بن أبى معيط وطئ على
رقبته الشريفة وهو ساجد عند الكعبة ، حتى كادت عيناه
تبرزان — وأدمى وجهك ، وكسرت رباعيتك ، فأبيت أن
تقول الا خيرا ، فقلت :

« اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون » .

(لقد دمي وجهه صلوات الله وسلامه عليه وكسرت

وباعيته في « غزوة أحد » . روى ذلك البخارى ومسلم :
أما حديث :

« اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون » فقد رواه البيهقى
في دلائل النبوة .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد اتبعك في قلة
سنك ، وقصر عمرك ما لم يتبع نوحا في كثرة سنه ،
وطول عمره ، ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه الا
القليل .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لو لم تجالس الا كفئا
لك ما جالستنا ، ولو لم تنكح الا كفئا لك ما نكحت
الينا ، ولو لم تواكل الا كفئا لك ما واكلتنا ، فقد والله
جالستنا ، ونكحت الينا ، وواكلتنا ، وابست الصوف ،
وركبت الحمار ، وأردفت خلفك ، ووضعت طعامك على
الأرض تواضعا منك صلى الله عليك وسلم .
هذه صورة .

ومن الطريف أن نذكر صورة أخرى استنتاجية ،
استنتجها رجل لم يكن يعرف الرسول صلوات الله
وسلامه عليه ، ولكنه رجل واسع الأفق رحب الخيال
دقيق التفكير .

وقد اتخذ الاحتياط اللازم حتى لا يشوب الصورة أى
مطعن ، هذا الرجل هو : « هرقل » .

أتاه كتاب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، يدعو
الى الاسلام فلم يهمل الكتاب ولم يمزقه ، وإنما قرأه في
عناية وانتباه ، ثم أراد أن يكون صورة صحيحة عن
صاحب الخطاب ، فسأل عما إذا كان بالمدينة بعض
العرب الذين يعرفون الرسول فقليل له : أن بالمدينة تجارا
من مكة يعرفون محمدا باعتباره من مواطنهم فامر

باحضارهم وكان منهم ابو سفيان .
 وسأل هرقل عن اقربهم نسبا الى الرسول ، فكان
 ابا سفيان فقربه منه وأدناه وقال لهم : انى سائله عن
 امور فان كذبنى فكذبوه :
 يقول : ابو سفيان ، فوالله لولا الحياء من ان ياثروا
 على كذبا لكذبت عليه .
 وسنترك المقدمات والاسئلة الاولى : لانها واضحة من
 النتائج التى انتهت اليها هرقل :
 ان هرقل بعد أن انتهى من الاسئلة : بدأ — عن طريق
 الترجمان — يقول لابی سفيان على مشهد من الملأ الحاضر
 من أصحاب هرقل ، ومن أصحاب أبى سفيان : سالتك
 عن نسبه :
 فذكرت : أنه فيكم ذو نسب .
 فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .
 وسالتك : هل قال احد منكم هذا القول ؟
 فذكرت : ان لا .
 فقلت : لو كان احد قال هذا القول قبله لقلت : رجل
 يأتسى يقول قبل قبله .
 وسالته : هل كان من آبائه من ملك ؟
 فذكرت : أن لا .
 قلت : لو كان من آبائه من ملك ، قلت : رجل يطلب
 ملك أبيه ؟
 وسالتك : هل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول
 ما قال ؟
 فذكرت : ان لا .

فقد اعراف انه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسألتك : اشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟

فذكرت : أن ضعفاءهم اتبعوه .

وهم : اتباع الرسل .

وسألتك : ايزيدون أم ينقصون ؟

فذكرت : أنهم يزدون .

وكذلك امر الايمان حتى يتم .

وسألتك ايرتد احد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

فذكرت : أن لا .

وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألته هل يغدر ؟

فذكرت : أن لا .

وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألته : بم يأمركم ؟

فذكرت : أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به

شيئا ، وينهاكم عن عبادة الاوثان ، ويأمركم بالصلاة ،

والصدق والعفاف .

فان كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين .

وقد كنت أعلم أنه خارج لم اكن اظن أنه منكم ، فلو

انى أعلم انى اخلص اليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده

لغسلت عن قدميه .

هذه الصورة التى كونها هرقل بمنطقه ، ويمكن ان

يكونها او يكون مثللات لها كل انسان اتسع افقه ، ورحب

تفكيره ، وكل انسان يصدق الله والحق : لابد ان ينتهى

بما انتهى اليه هرقل من قوله : « لو كنت عنده لفسلت عن قدميه » وانما يفسل عن قدميه ، من أجل : « يوحى الى » . اذ أن من اصطفاه الله لرسالته جدير بأن يكون أهلا لذلك .

بيد أن هذه النهاية التى انتهى إليها هرقل ، انما هى الشعار الدائم الذى لا ينتهى بانتقال الرسول الى الملا الأعلى ، فالرسول حى بيننا الآن برسالته وهديه وتعاليمه والفسل عن قدميه الآن أو بتعبير آخر احترامه : انما هو باتباع هديه ، والتزام رسالته ، وتقديره تقديرا يتناسب مع اصطفاه الله له صلى الله عليه وسلم .

ولقد ركز هرقل نوعا على الصدق والاخلاص ، والواقع أن صورة الصدق والاخلاص كان يراهما كل من عرف الرسول صلى الله عليه وسلم ولم تعمه عصبية ، أو حسد أو هوى .

على أن صورة الصدق والاخلاص ، كانت سمة من السمات التى اتصف بها الرسول قبل بعثته ، وبعد بعثته صلوات الله وسلامه عليه ، لقد لازمته طيلة حياته ، لقد كان مجرود الخبر يلقيه صلوات الله وسلامه عليه ، يأخذه أعدى أعدائه على أنه واقع لا محالة . فهذا أمية ابن خلف - عدو لدود - يتلاحى مع سعد بن معاذ رضى الله عنه ، يريد أن يمنعه من الطواف بالكعبة ، فيقول له سعد بن معاذ فى حدة المناقشة : لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : انه « قاتلك » ويضطرب قلب أمية بن خلف ويسأل فى لهفة وضعف وتخاذل : « أو قال ذلك حقا ؟ فلما أكد له سعد بن معاذ الخبر أسقط فى يده وقال : لئن كان قال ذلك ، لقد صدق ، وقتل أمية بن خلف يوم بدر .

على أن هذه الصورة تتمثل فى وضوح بين حينما أعلن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه الى قريش نبوته ، فقال لهم :

« أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الوادى تريد أن تغير عايكم أكنتم تصدقونى ؟ » .

لقد كانت اجابتهم عن هذا السؤال تعبر عن الحقيقة التى لمسوها فيه لقد قالوا :

« نعم انت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذبا قط » .

وصورة اخرى ، صورة لم يترتب لها ترتيب مروي ولم يؤد اليها منطق محكم ، صورة لم تكن نتيجة عشرة طويلة ، ورفقة قريبة ، وانما جاءت على البديهة ، واوحت بها الملاحظة السليمة .

انها الصورة التى كونتها عنه صلوات الله وسلامه عليه أم معبد الخزاعية ، وهى صورة لا تخص الجانب المعنوى منه وانما تتصل على الأخص بالجانب الظاهر ، واردنا أن نثبتها هنا لنثبت بها « هيئة » وظاهرا بعد أن اثبتنا زوايا من المعنويات ، وجوانب من التقدير والاجلال ، أن الصورة التى نثبتها الآن مجرد وصف ، انها تعبر عن ملاحظة .

هاجر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من مكة الى المدينة يرافقه أبو بكر رضى الله عنه ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ودليلهم عبد الله بن أريقط .

مروا بخيمة أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة قوية الأخلاق عفيفة تقابل الرجال ، فتتحدث اليهم وتستضيفهم : وسألها الركب عن تمر أو لحم يشترونه فلم بصيبوا عندها شيئا من ذلك ، فقد كانت سنة من السنين العجاف ، فقال لهم :

والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى . فنظر رسول

الله صلى الله عليه وسلم الى شاة فى ركن الخيمة : فقال :
« ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ » قالت :

هذه شاة خلفها التعب عن الغنم .

فقال صلوات الله وسلامه عليه : هل بها من لبن ؟
فقالت : « هى اجهد من ذلك » .

قال : « اتأذنين أن ان أحلبها » ؟ .

قالت : نعم بأبى انت وأمى ان رأيت بها حلبا .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة فمسح
ضرعها وذكر اسم الله وقال :

« اللهم بارك لها فى شاتها » .

فامتلا ضرع الشاة ودر لبنها ، فدعا باناء لها كبير ،
فحلب فيه حتى ملأه فسقى أم معبد فشربت حتى رويت ،
وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب صلى الله عليه وسلم
آخرهم وقال : « ساقى القوم آخرهم » .

فشربوا جميعا مرة بعد مرة .

ثم حلب فيه ثانية عودا على بدء ، فغادروه عندها ،
ثم ارتحلوا عنها ، فما لبثت أن جاء زوجها يسوق اعززا
عجافا هزلى فلما رأى اللبن عجب واستغرب وقال :

« من أين لكم هذا ولا حلوبة فى البيت » ؟ .

قالت : لا والله الا انه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه
كيت وكيت .

قال : والله انى لأراه صاحب قريش الذى يطلب ،
صفيه لى يا أم معبد ؟ .

قالت : رأيت رجلا ظاهرا الوضأة ، متبلج « مشرق »
الوجه ، حسن الخلق ، لم تعب ثجلة « ضخامة البطن »

ولم تزر به صعلة « لم يشنه صفر الرأس » وسيم قسيم ،
 فى عينيه دمع ، وفى أشفاره وطف « طويل شعر الأجمان » ،
 وفى صوته صحل « رخم الصوت » أحور أكحل أرج أقرن
 شديد سواد الشعر ، فى عنقه سطح « ارتفاع وطول » وفى
 لحيته كثافة ، اذا صمت فعليه الوقار ، واذا تكلم سما
 وعلاه البهاء ، وكان منطقة خرزات نظم يتحدثون ، حلو
 المنطق فصل لا ندر ولا هذر « لا داعى فيه ولا ثرثرة فى
 كلامه » أجهر الناس وأجملهم من بعييد ، وأحلاهم
 وأحسنهم من قريب ، ربعة « وسط ما بين الطول
 والقصر » لا تشنؤ « تبغضه » من طول ولا تقتحمه عين
 « تحتقره » من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر
 الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدرا له رفقاء يخصون به ،
 اذا قال استمعوا لقوله ، واذا أمر تبادروا الى أمره ،
 محفود « يسرع أصحابه فى طاعته » ، محشود « يحتشد
 الناس حوله . لا عايب ولا منفذ « غير مخرف فى الكلام » .
 قال أبو معبد : هذا والله صاحب قریش الذى ذكر
 لنا من أمره ما ذكر ، ولو كنت وافقته يا أم معبد لتلمست
 أن أصحابه ولا فعلن ان وجدت لذلك سبيلا .
 هذه هى الصورة التى حاولت أم معبد رسمها .

أما سيدنا عمر بن العاص فانه يقول فى صراحة وصدق
 — عندما حضرته الوفاة وعندما تذكر الماضى فخنقته
 العبرات ، وتحدث مع ابنه عن أشياء عدة فى صورة
 مؤثرة — : « ما كان احد أحب الى من رسول الله صلى الله
 عليه وسلم ولا أجل فى عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملا
 عيني منه أجلا ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت : لاني
 لم أكن أملا عيني منه » .

والآن نريد أن نتساءل : ما هي الصورة التي نريد أن
نرسمها في هذا الكتاب ؟ .

ونريد أن نقول : إن هذه الصورة التي نحاول رسمها ،
ليست صورة مبتدعة لا مخترعة ، أنها صورة نحاول
جاهدين أن تكون مستمدة من التاريخ الصحيح .

بيد أننا نعود فنقول : اننا لا نرسم صورة كاملة :
فالصورة الكاملة لا يتأني لمثلنا أن يرسمها ونحن هنا ،
انما نحاول رسم جملة من الزوايا شاعرين بتقصيرنا ،
معترفين بمعجزنا ، ولكن أملنا كبير في أن تكون هذه
الصورة باعثة لتصحيح بعض الأوضاع وأن تكون على
ما فيها من عجز وقصور ، ممثلة لبعض ما نكنه لسيد
ولد آدم : من حب وإيمان ، وأن تكون بذلك شفيعة لنا
عند الله يوم لا ينفع مالا ولا بنون الا من ألى الله بقلب
سليم .

ومع هذا الزوايا التي نحاول رسمها فانه لا يعزب قط
عن بالنا قول امامنا البوصيري رضي الله عنه عن الرسول
صاوات الله وسلامه عليه هذه الأبيات ، التي تعبر عن
الحقيقة تعبيرا صادقا :

أعيا الورى فهم معناه فليس يرى
للقرب وانبعس فيه غير منفحم
كالشمس تظهر للعينين من بعد
صفيرة وتكل الطرف من أمم
وكيف يدرك في الديباجة حقيقته
قوم نيام تسلاوا عنه بالحلم
فيمبلغ العظام فيه أنه بشر
وأنه خير خلق الله كلهم

النسب الشريف

لم تزل فى ضمائر الكون تختا
و لك الامهات والاباء
ابسان مولسده عن طيب عنصره
يا طيب مبتداً منه ومختتم
يقول صلوات الله وسلامه عليه ، فيما رواه الامام
مسلم :

« ان الله ، اصطفى من ولد ابراهيم : اسماعيل ،
 واصطفى من ولد اسماعيل : بنى كنانة ، واصطفى من
 بنى كنانة : قريشا ، واصطفى من قريش : بنى هاشم ،
 واصطفانى من بنى هاشم » .

وهو صلوات الله وسلامه عليه : محمد بن عبد الله ، بن
 عبد المطلب بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قصي :
 ويصل نسبة الى سيدنا ابراهيم عليه السلام :

ولا نريد هنا ، ان نتحدث عن النسب الشريف من
 ابراهيم عليه السلام ، الى محمد صلوات الله وسلامه
 عليه ، وانما نريد ان نتحدث عن نسبه القريب ، بادئين
 من قصي :

قصي :

كان قصي عظيم الشرف ، كثير المال ، وكانت خزاعة في عهده ، وبنو بكر : يتولون البيت الحرام وأمر مكة ، ورأى قصي : أن قريشاً : إنما هي الوارث الشرعي لاسماعيل فهي فرعته (١) وصريح ولده ، فكلّم رجلاً من قريش وبنى كنانة ، ودعاهم إلى اخراج خزاعة وبنى بكر من مكة وقال : نحن أولى بهذا منهم .

وأخذ قصي في تدبير الأمر واحكامه ، ولم تكن المسألة سهلة ميسرة ، وكان لا مفر من الحرب فيها ، واقتتل الطرفان قتالاً شديداً وكانت الغلبة في النهاية لقصي .

ولما فرغ من نفى خزاعة وبنى بكر عن مكة ، تجمعت إليه قريش - حسبما يروى ابن سعد في « طبقاته الكبرى » - فسميت يومئذ قريشا (٢) لحال تجمعها ، والتقرش هو التجمع .

ومما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال :

« كان قصي بن كلاب أول ولد كعب بن لؤي ، أصاب ملكاً أطاع له به قومه ، فكان شريف أهل مكة ، لا ينازع فيها فابتنى دار الندوة ، وجعل بابها إلى البيت ، ففيها يكون أمر قريش كله ، وما أرادوا من : نكاح أو حرب أو مشورة فيما ينوبهم حتى أن كانت الجارية تبلغ أن تدرع فما يشق درعها إلا فيها ، ثم ينطلق بها إلى أهلها ، ولا يعقدون لواء حرب لهم ، ولا في قوم غيرهم إلا في دار

(١) سلالة .

(٢) قيل لى سبب التسميه بأراء غير ذلك .

الندوة : يعتقدهم قصى ، ولا يعذر (١) لهم غلام الأقي دار
الندوة ، ولا تخرج غير (٢) من قريش فيرحلون إلا منها ،
ولا يقدمون إلا نزلوا فيها تشريفا له ، وتيمنا برأيه ،
ومعرفة بفضلله ، ويتبعون أمره كالدين المتبع : لا يعمل
بغيره في حياته وبعد موته ، وكانت إليه الحجابة (٣)
والسقاية (٤) والرفادة (٥) واللواء (٦) والندوة (٧) ،
وحكم مكة كله وكان يعشر (٨) من دخل مكة سوى أهلها :

قال : وإنما سميت : دار الندوة لأن قريشا كانوا
ينتدون فيها : أي يجتمعون للخير والشر ، والندى .
مجمع القوم : إذا اجتمعوا (٩) .

وقسم قصى مكة أحياء ، وخصص كل قوم من قريش
بحى ، وضائق مكة بأهلها ، وكانت كثيرة الشجر في
الحرم ، وكانت قريش تهاب قطع الشجر في الحرم ،
فأمرهم قصى بقطعه ، وقال : أنمسا تقطعونه لمنازلكم
ولخططكم : بهلة (١٠) الله على من أراد فسادا ، وقطع
هو بيده وأعوانه فقطعت - حينئذ - قريش ، وسمته
« مجمعا » لما جمع من أمرها وتيمنت به وبأمره .

وقبل موته أعطى مناصب الشرف كلها - دار الندوة
والحجابة والسقاية واللواء والرفادة - إلى أكبر أبنائه
سنا ، وهو : عبد الدار .

وكان من أبنائه : عبد مناف .

- | | |
|---------------------|-----------------------------|
| (٢) قاللة | (١) لا يغتن |
| (٤) سقيا الحجيج | (٣) سقاية البيت |
| (٦) للحرب | (٥) اطعام الحجيج |
| (٨) يأخذ منهم العشر | (٧) للمشورة |
| | (٩) أنظر طبقات ابن سعد ص ٥٠ |
| | (١٠) أي لعنته |

عبد مناف :

ومما يذكر بالنسبة لعبد مناف . ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتصر عليه حين انزل الله تعالى عليه : « وانذر عشيرتك الاقربين » (١) .

فانه حينما نزلت هذه الآية الكريمة ، واجتمع اليه بنو عبد مناف تلبية لندائه قال لهم :

« ان الله قد امرني ان انذر عشيرتي الاقربين ، وانتم الاقربون من قريش ، واني لا املك لكم من الله حظا ، ولا من الآخرة نصيبا ، الا أن تقولوا :

« لا اله الا الله ، فاشهد بها لكم عند ربكم ، وتدين لكم بها العرب ، وتذل لكم بها العجم » .

هاشم :

وولد عبد مناف بن قصي ستة نفر ، وست نسوة ، كان من بينهم هاشم بن عبد مناف ، واسمه عمرو ، وهو الذي عقد الحلف لقريش من هرقل ، من أجل أن تختلف الى الشام آمنة مطمئة .

وهاشم هو صاحب . ايلاف قريش ، وايلاف قريش هو : دأبها وعادتها : ولقد كان هو أول من سن الرحلتين لقريش ، ترحل احدهما في الشتاء الى اليمن ، والى الحبشة : الى النجاشي فيكرمه ويهديه الهدايا ، ورحلة الصيف الى الشام والى غزة وربما بلغ انقرة فيدخل على قيصر فيكرمه ويهديه الهدايا (٢) .

(٢) انظر طبقات ابن سعد

(١) الشعراء ٢١٢

ثم اصاب قريشا ، سننوات جذب عجاف ، ذهبن
بالأموال ، فخرج هاشم الى الشام ، فأمر بخبز كثير فخبز
له فحملة في الفرائر على الابل حتى وافى مكة ، فهشم
ذلك الخبز ، يعنى : كسرة ، ونردة ، ونحر تلك الابل ،
ثم أمر الطهاة فطبخوا ، وقدم الطعام لاهل مكة
فأشبعهم ، وكان ذلك اول الحياة بعد السنة التى اصابتهم
فسمى بذلك : هاشما .

وكان هاشم : رجلا شريفا طموحا ذكيسا ولم يكن
يرضيه قط أن يستأثر بنو عبد الدار بمناصب الشرف
فى مكة — من الحجابة واللواء والرفادة والسقاية والندوة
— فحمل اللواء ضد بنى عبد الدار ، وتهيا الفريقان
وأحلافهم للتنازل ، وعبثت كل قبيلة لقبيلة ، ثم سعى
الناس بينهم للصلح ، واصطلحوا يومئذ على أن يولى هاشم
ابن عبد مناف السقاية والرفادة ، وكان رجلا عريض
الثراء ، وكان اذا حضر الحج قام فى قريش ، فقال :

يا معشر قريش انكم جيران الله ، واهل بيته ، وانه
باتيكم فى هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته ، فهم
ضيف الله ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد خصكم
الله بذلك ، وأكرمكم به وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار
من جاره ، فأكرموا ضيفه وزواره .

وكان هاشم يأمر بحياض من آدم (١) فتجعل فى موضع
زمزم ، ثم يستقى فيها الماء من البئر (٢) التى بمكة ،
فيشربه الحاج ، وكان يطعمهم أول ما يطعم قبل التروية
بيوم بمكة ويمنى وعرفة ، وكان يثرد لهم الخبز واللحم
والسمن ، والسويق والتمر ، ويجعل لهم الماء ، فيسقون

(١) حياض اليم : هى جياض من جلد .
(٢) الابار .

بمنى ، والماء يومئذ قليل فى حياض الادم الى ان يصدروا
من منى فتقطع الضيافة وتفرق الناس لبلادهم .

عبد المطلب :

وولد هاشم بن عبد مناف اربعة نفر ، كان منهم شبيه
الحمد وهو عبد المطلب . وتولى عبد المطلب بن هاشم
الرفادة والسقاية ، فلم يزل ذلك بيده . يطعم الحاج
ويسقيه فى حياض من ادم ، الى ان حفر زمزم ، فاصبح
يسقى الحاج من زمزم ، ويعمل الماء من زمزم الى عرفه
فيسقيهم به .

وكانت زمزم سقيا من الله .

لقد ابنى عبد المطلب فى المنام مرات ، فامر به بحفرها
ووصف له موضعها فقبل له .

« احفر طيبة » .

فقال : وما طيبة ؟

فلما كان الغد اتاه ، فقالوا : « احفر برة » .

قال : وما برة ؟

فلما كان الغد اتاه ، وهو نائم فى مضجعه ذلك فقال :

« احفر المذنونة » .

قال : وما المذنونة ؟

ابن لى ما تقول ؟

فلما كان الغد اتاه ، فقال : « احفر زمزم » .

قال : وما زمزم ؟

قال : « لا تنزع ولا تدم ، تسقى الحجاج الاعظم ،

وهى بين الفرث والدم عند نقرة الفراب الاعصم » .

فلما عين موضعها غدا عبد المطلب بمعوله ومسحائه
وحفر هو وابنه الحارث حتى وصل الى الماء فكانت
زمزم .

وكان عبد المطلب من حكماء العرب ، ومن حكماء قريش ،
وتأثر عنده سنن ، جاء القرآن بأكثرها كالمنع من نكاح
الحارم ، وقطع يد السارق ، والنهي من قتل الموءودة (١) .
ويصف المؤرخون عبد المطلب ، فيقولون :

« كان أحسن قريش وجها ، وأمدّه جسما ، وأحلمه
حلما ، وأجوده كفا ، وأبعد الناس من كل موبقة تفسد
الرجال ، لم يره ملك قط إلا أكرمه وشفعه وكان سيد
قريش حتى مات » (٢) .

عبد الله :

أما عبد الله ، والد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ،
فقد كان صورة طبق الأصل من جده ، ولو أمهله الزمن
لتولى مناصب الشرف التي كانت بيد عبد المطلب ، وكان
شعاره الذي التزمه طيلة حياته ما عبر عنه هو بقوله :

« أما الحرام فالملات دونه » .

وتقول له فاطمة الخثعمية : « انى لأعرف فيك نسك

أبيك » .

وإذا نظرنا أذن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
من ناحية والده وأسلافه ، ومن ناحية والدته وأخواله ،
فاننا نجدهم — خلفا وعزاة أصل — من أشرف بيوت
مكة وأكرمها ، وأسمائها بشهادة المؤرخين جميعا ، فكان

(١) التمهيد للشيخ مصطفى عبد الرازق

(٢) أنظر طبقات ابن سعد

صلوات الله وسلامه عليه - كما يقول بن هشام :
« أوسط قومة نسبا ، وأعظمهم شرفا من قبل أبيه
وأمه » .

مولده :

لما حملت به أمه آمنة بنت وهب كانت تقول :
« ما شعرت أني حملت به ولا وجدت له ثقلة ، كما
تجد النساء ، إلا أني قد أنكرت رفع حيضتي ، وربما
كانت ترفعني وتعود ، وإتاني آت وإنا بين النائم واليقظان
فقال :

« هل شعرت أنك حملت ؟ فكاني أقول : ما أدري .

فقال : أنك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيها وذاك
يوم الاثنين .

قالت : فكان ذلك مما أيقن عندي الحمل ، ثم أمهلني
حتى إذا دنت ولادتي إتاني ذلك الاتي فقال :

قولي : « أعيذه بالواحد الصمد من شر كل حاسد » .

قالت : فكنت أقول ذلك ، فذكرت ذلك لنسائي فقلن
لي : تعلقين حديدا في عضديك وفي عنقك ، قالت : ففعلت .

قالت : فلم يكن ترك علي إلا أياما فأجده قد قطع فكنت
لا أتعلقه » .

ويقول أبو جعفر محمد بن علي : « أمرت آمنة وهي
حامل برسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسميه :

« أحمد » .

ورأت أمه حين ولدته كأن نورا سطع منها أضواء له
قصور الشام :

وولده صلوات الله وسلامه عليه ، فارخ ميلاده ابتداء التمهيد ، لما أراده الحكمة الالهية : من أخراج البشرية من الظلمات الى النور .

كان ميلاده تمهيدا لذلك ، بمعنى : أن الله سبحانه وتعالى ، في هذه الفترة التي سبقت الرسالة ، أحاط رسول الاسلام بعنايته ورعايته ، ليكون أهلا لأن يحمل رسالة ، ولأن يبشر بالدين العام ، ولأن يبين للإنسانية أجمع المعنى الصحيح فيما يتعلق بأمر الصلة بينهما وبين الله .

وفيما يتعلق بأمر سلوك كل شخص بالنسبة لنفسه ، وبالنسبة للآخرين ، وليحدد مسئولية كل شخص في المجتمع : حاكما كان أو محكوما ، زوجا كان أو أبا أو ابنا أو أخا أو رئيسا في العمل أو عاملا . الى غير ذلك مما يشتمل على بعضه الحديث الشريف :

« كلكم راع ومسئول عن رعيته . فالامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل في بيته راع ومسئول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتهما ، والخادم في مال سيده راع ومسئول عن رعيته ، فكلكم راع ومسئول عن رعيته » .

ومنذ ميلاده صلوات الله وسلامه عليه بدأت تنزل جميع أسس الضلال والانحراف ، وترمز الى ذلك كتب السيرة النبوية ، رموز جميلة فتحدثنا :

« أنه في ليلة ميلاده صلى الله عليه وسلم غائمت بحيرة ساوى ، وتصعد ايوان كسرى ، وخبث نار الفرس » .
أما الأصنام التي كانت على ظهر الكعبة فان مصيرها المحتوم وتحطيمها المؤكد قد تحسدد مواعده بالسنين والأيام .

ان عمد الشرك هذه والضلال والانحراف والظلم والاستعباد ! .

بدأت تنهار وتنهار ، منذ ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصبح أمر النور والهداية والرشاد وشيك الظهور والانتشار .

وسمى المولود « محمدا » .

أما سبب هذه التسمية فإنه حينما جاء جده عبد المطلب ليراه قبل له :

« ما سميت ابنك » ؟ .

فقال : « محمدا » .

فقيل له : كيف سميته باسم ليس لاحد من أبنائك وقومك ؟ .

فقال : انى لأرجو أن يحمداه أهل الأرض كلهم ، وذلك حسبما يروى السهيلي لرويا كان قد رآها عبد المطلب - وقد ذكر حديثها على القيروانى فى كتاب : « البستان » .

قال : « كان عبد المطلب قد رأى فى نومه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره ، لها طرف فى السماء ، وطرف فى الأرض ، وطرف فى الشرق ، وطرف فى الغرب ، ثم عادت كأنها شجرة على ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها » فقصها « فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ويحمده أهل السماء والأرض » .

فلذلك سماه : محمدا ، وسمته أمامه من قبل : أحمد فهو أحمد وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

ولقد تحدث الرسول صلوات الله وسلامه عليه فيما بعد عن اسمائه فقال فيما رواه الإمام أحمد :

« ان لى أسماء : أنا محمد وأنا أحمد وأنا الحاشر
الذى يحشر الناس على قدمي ، وأنا الماحي الذى يمحي
به الكفر ، وأنا العاقب » .

وقال فيما رواه الإمام أحمد أيضا :

« أنا محمد ، وأنا أحمد ، ونبي الرحمة ونبي التوبة
والحاشر والمقفي ونبي الملاحم » .

وكان من عادة العرب أن يرضعوا أبناءهم خارج مكة ،
فيرضعوهم فى الصحراء المنطلقة مكانا وجوا ليشبوا فى
صحة تامة ، جسما وهقلا ومن أمثالهم ، العقل السليم
فى الجسم السليم .

وجاءت المرضعات يلتمسن الرضعاء فى مكة ، وهنا
نترك السيدة حليلة السعدية تتحدث عن الرحلة وعمما
صادفت فيها ذهابا وإيابا ، وعمما رآته من بركات رسول
الله صلوات الله وسلامه عليه ، لقد كانت تقول :

« أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير
ترضعه فى نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء
قالت : وهى فى سنة شهباء لم تبق لها شيئا » .

قالت : فخرجت على إتان لى قمراء معنا شارف لنا ،
والله ما تبض بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا
الذى معنا من بكائه من الجوع وما فى ثديي ما يغنيه وما فى
شارفنا ما يفديه ، وكلنا كنا نرجو الفيث والفرج .

فخرجت على إتانى فلقد أذمت (١) بالركب حتى شق
عليهم ضعفا وعجفا ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ،
فما منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله : محمد
صلى الله عليه وسلم فتأباه اذا قيل لها « أنه يتيم » وذلك
أنا انما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول :

(١) جاءت بها تلم عليه

يتيم : وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ فكنا نتركه لذلك
فما بقيت امرأة قدمت إلا أخذت رضيعا غيры .

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : والله انى لاكره
أن أرجع من صواحبي ولم آخذ رضيعا ، والله لاذهبى الى
ذلك اليتيم فلاخذنه .

قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه
بركة .

قالت : فذهبت اليه فاخذته ، وما حملنى على أخذه
الا انى لم أجد غيره .

قالت : فلما أخذه رجعت به الى رحلى ، فلما وضعته
فى حجرى أقبل عليه ئدياى بما شاء من لبن ، فشرب
حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما وما كنا
ننام معه قبل ذلك .

وقام زوجى الى شارقنا تلك ، فاذا بها حافل ، فحلب
منها وشرب وشربت معه ، حتى انتهينا ريا وشبعنا فبتنا
بخير ليلة .

قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا ، تعلمين والله
يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة .

فقلت : والله انى لأرجو ذلك .

قالت : ثم خرجنا وركبت اتانى وحملته عليها معى
فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شىء من حمزهم
حتى أن صواحبي ليقلن لى :

يا ابنة أبى ذؤيب ويحك . أربعى علينا ، اليسبت هذه
أتانك التى كنت خرجت عليها ؟ .

فأقول لهن ، بل والله انها لهى هى .

فيقلن ، والله ان لها لسانا .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد : وما أعلم أرضا من أرض الله أجلب منها ، فكانت تروح على حين قدمنا به معنا شباعا لبنا فنحلب ونشرب ، وما يحلب انسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعايتهم ، ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت ابي ذؤيب . فتروح اغنامهم جياها ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعا لبنا . فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته .

وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنّيه حتى كان غلاما جفرا ، ولكنه صلوات الله وسلامه عليه لم يمكث عندها عامين قط : ذلك انها على رأس العامين ذهبت به الى مكة لتراه امه وليراه جده ثم عادت به اشد ما تكون حرصا عليه وعلى العودة به .

اخذت حليلة السعدية رسول المستقبل الى بادية بني سعد مرة اخرى ، وليس هناك من غرابة في أن يكون رسول النور هذا قد ملا رحلتها من مكة الى البادية بالبهجة والنشاط ، وبالامل والتفاؤل .

ان الابحاث الحديثة نفسها ، وتجارب الانسانية منذ أن وجدت الانسانية : تؤيد أن هناك اشاعات عند بعض الناس تضى على المرافقين لهم بهجة ونشاطا ، فلا غرابة اذن أن تنشط حليلة وينشط زوجها وتنشط دوابهما وأن تسير الرحلة في رخاء وأن يكون محمد في براءته وطهارته وفي طفولته الباسمة ونضرة المتألقة : هو سبب ذلك كله .

ويملا محمد بيت حليلة بهجة وسرورا ، ويدب النشاط في جميع أرجاء البيت وعند جميع سكانه . ويبارك الله في كل شيء فيه . وتنعم هذه الأسرة بحياة

هنيئة ، فيزيد عطفها على محمد ويزيد حنانها عليه ،
فينمو في جو من الرحمة والود والحنان : وينفوس كل
ذلك في نفسه ويمتلئ قلبه الناشئ بدور أسمى انعواطف
والشيم .

ويتحقق منذ طفولته — بل وإلى أن تنتهي به الحياة
— ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه لما توفي
مجد الله قالت الملائكة :

« الهنا وسيدنا بقى نبيك يتيما » .

فقال الله تعالى : « أنا له حافظ ونصير » .

نبي التوبة صلى الله عليه وسلم

عن حذيفة رضى الله عنه قال : فيما رواه الامام احمد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من نفسه :
« انه نبي التوبة » .

والتوبة عند الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وفي الجو الاسلامي على وجه العموم شأن كبير ، ذلك ان التوبة انما هي تصفية للنفس ، وتزكية للروح ، ونتيجتها الاخلاص .

وأهمية الاخلاص اذا نظرنا الى الفرد ، او نظرنا الى المجتمع ، لا تخفى على أحد .

واذا نظرنا الى حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، من زاوية التوبة والاخلاص ، وصفاء النفس ، وتزكية الروح : فان أول ما يفجؤنا من ذلك انما هو هذا الحادث الذي ترويه كتب السيرة تحت عنوان : « شق الصدر » . وهذا الحادث وقع لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه منذ الطفولة المبكرة .

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه اذ ذاك في بادية بني سعد عند مرضعته ، وبينما هو يلعب مع الغلمان - على ما يروى الامام مسلم - اتاه جبريل فأخذه فضجعه فشق عن قلبه فاستخرجه ، فاستخرج منه علة فقال :

« هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه » .

وجاء الغلماء يسعون إلى أمه - يعني مرضعته - : أن محمدا قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممثقع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريبا .

فلما كان ابن عشر سنين تكرر حادث شق الصدر ، فقد روى الإمام أحمد وابن حبان والحاكم وابن عساکر عن أبي بن كعب : أن أبا هريرة رضى الله عنه كان جريئا على أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء لا يسأله عنها غيره فقال :

« يا رسول الله ما أول ما رأيت في أمر النبوة ؟ »
فاستوى رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا وقال :
« لقد سألت أبا هريرة » .

« انى لقي صحراء ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل : « أهو هو » ؟ »
قال : نعم .

فاستقبلانى بوجوه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا إلى يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى لا أحد لآخرهما مسا .

فقال أحدهما لصاحبه : اضجعه فأضجعانى بلا قسر (١) ولا هصر (٢) .

وقال أحدهما لصاحبه :
« أفلق صدره » .

(١) القسر : الاجبار

(٢) الهصر : ثنى المسموم من رأسه ، والمعنى : لم يشيأ ظهري ولم يكرهاني

فهوى أحدهما إلى صدرى فقلقه فيما أرى بدون دم
ولا وجع ، فقال له :

أخرج الفل والحسد فأخرج شيئا كهيئة العلقمة ثم
نبذها فطرحها فقال له :

أدخل الرافة والرحمة ، فإذا مثل الذى أخرج يشبه
الفضة ، ثم هز ابهام رجلى اليمنى فقال : أغد واسلم .

« فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ، ورحمة
للكبير » .

فلما جاوز صلوات الله وسلامه عليه 'الخمسين' أتاه آت
بينما كان فى الحطيم أو فى الحجر مضجعا بين النسائم
واليقظان ، أتاه فشق عن صدره - حسبما يروى البخارى
ومسلم - واستخرج قلبه ! .

« ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيمانا ، ففسل قلبى
م حشى ثم أعيد » .

وتكرر المعراج فتكرر شق الصدر . فعن أبى بن كعب
- فيما رواه الامام أحمد والامام مسلم - أن رسول الله
سلى الله عليه وسلم قال :

« فرج سقف بيتى وأنا بمكة ، فنزل جبريل ففرج
صدرى ، ثم غسله من ماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب
مملوءة حكمة وإيمانا ، فأفرغه فى صدرى ثم أطبقه » .

ولا يعني هنا لا فى قليل ولا فى كثير ، أن نجارى الماديين
بجدلهم فيما يتعلق بشق الصدر :

فالأمر أسمى بكثير من المماراة فى الشكل ، والكيف ،
الزمان ، والمكان .

والمفزى : أعرق من أن نتجاوزه الى المماحكات التى
سعر يضعف الايمان أكثر مما تشعر بنور اليقين .

لقد روت كتب السنة بالاسانيد الصحيحة ، وروت كتب السيرة هذه الحادثة التى توجه النظر الى عناية الله سبحانه وتعالى برسوله منذ طفولته المبكرة ، وان من مظاهر هذه العناية : أن يستخرج الله حظ الشيطان من قلبه منذ سنية الاولى حتى لا يكون للشيطان عليه من سبيل .

ان الله سبحانه وتعالى - وقد شاءت ارادته ، منذ الازل ، أن يكون محمد خاتم الانبياء والمرسلين - أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الكامل للانسان الكامل

والانسان يبدأ السير نحو الكمال : بطهارة القلب ، وتصفية النفس ، والتوبة ، والاخلاص - أو بتعبير آخر - بشق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه ، وأرسل الله ملائكته ، فشقوا عن صدر الرسول ، واستخرجوا حظ الشيطان منه .

وأرسلهم ، فشقوا عن صدره ، وملاوا سكينه .
ثم أرسلهم ، فشقوا عن صدره ، وملاوه رافة ورحمة فكان صلوات الله وسلامه عليه : رافة على الصغير ورحمة للكبير .

ثم أرسلهم فشقوا عن صدره ، فملاوه إيماناً .
ثم شقوا عنه فملاوه حكمة .

وأذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المثل الكامل للانسان الكامل ، فان لنا فيه أسوتنا ، والأسوة فى شق الصدر انما هى : التوبة .

وتوبتنا الى الله اذن توبة نصوحا : وانما هى بمثابة شق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه .

والتوبة النصوح : تخرجنا مباشرة عن جو الخطائين بل وعن جو الدين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، هؤلاء

الذين يقول الله فيهم: « عسى الله أن يتوب عليهم » (١) .
 ان الله يعبر في شأنهم بكلمة « عسى » والتوبة النصوح
 تخرجنا من جو « عسى » لتضعنا في جو : « مع الذين أنعم
 الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » .
 والتوبة النصوح ، التوبة الصادقة من الآثام والمعاصي :
 حد فاصل ، وفيصل حاسم بين عهدين : عهد سيطرة
 الشيطان ، سيطرة كلية أو سيطرة جزئية ، سيطرة دائمة
 أو سيطرة مؤقتة ، وعهد الانطواء تحت لواء عباد الرحمن
 الذين يقول الله في حقهم مخاطبا الشيطان :
 « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » (٢) .

وبمجرد ان ينزع الانسان سلطان الشيطان في صورة
 من العزم المصمم وينطوى تحت لواء الله في صورة من
 اليقين الملمئن ، فان الله سبحانه وتعالى ، يتولاه
 ويتكفل به .

بل ان رعاية الله سبحانه وتعالى : تبدأ مع الانسان منذ
 أن يبدأ في الاتجاه اليه سبحانه وتعالى مباشرة ، وبدء
 الانسان في الاتجاه الى الله ، انما يكون الاستغفار فإذا
 بدأ الانسان بالاستغفار بدأت رعاية الله له ، يقول الله
 تعالى :

« استغفروا ربكم انه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم
 مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل
 لكم أنهارا » (٣) .

وكلما ازداد الانسان اتجاها الى الله ، واقبالا عليه ،
 وتقربا منه وحبا فيه : ازدادت رعاية الله له :

(٢) الاسراء : ٦٥

(١) التوبة : ١٠٢

(٣) توح : ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢

« ومن تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ، ومن تقرب الى ذراعا تقسرت اليه باعا ، ومن اتانى يمشى آتيته هرولة » .

ان حياة النفوس والعمل الصالح ، اهم عنصر لسعادة الانسان في حياته الدنيا وسعادته في الحياة الآخرة والله سبحانه وتعالى يبين ذلك في اكثر من آية في القرآن الكريم :

« من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون » (١) .
« ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض » (٢) .

« ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه » (٣) .
التقوى والعمل الصالح نتيجتهما : السعادة وعناية الله ورعايته ، واللبنة الاولى في اساس كل ذلك : انما هي التوبة ، او هي : شق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه . وقد فتح الله بابها على مصراعيه انه سبحانه وتعالى - فيما رواه الامام مسلم - : « يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » . ويقول سبحانه :

« قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يقفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم ، وانيبوا الى ربكم واسلموا له » (٤) .

وتوبة العوام انما هي من الذنوب والآثام ، اما الخواص ، فانهم لا يتوبون من الآثام والمعاصي ، فذلك ميدان قد

(١) النحل : ٩٧ (٢) الاعراف : ٩٦
(٣) الطلاق : ٢ . ٢ (٤) الزمر : ٥٣ ، ٥٤

تطهروا منه ، ونزههم الله برحمته عن أن يقعوا فيه :
ومع ذلك فانهم يتوبون الى الله ويستغفرونه مصبحين ،
ويستغفرونه مسجدين ، ويتوبون اليه ممسين ، بل
يستغفرونه ويتوبون اليه تعالى في كل وقت وحين :
خضوعا له وخشية منه ، وتقربا اليه ، وخوفا من الكبر
الخفى ، أو الغرور المستتر . أو الغفلة التى قد لا يشعر
بها الانسان .

لقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في ترقبه
الدائم ، وفي أنواره التى تزداد كل لحظة ضياء : يستغفر
الله ، ويتوب اليه استغفار عبادة وتوبة انابة وقربى .
يقول صلوات الله وسلامه عليه - فيما رواه الامام
البخارى - .

« والله انى لاستغفر الله واتوب اليه في اليوم أكثر من
سبعين مرة » . ويقول صلوات الله وسلامه عليه - فيما
رواه الامام مسلم - : « يا أيها الناس توبوا الى الله
واستغفروه ، فانى اتوب اليه في اليوم مائة مرة » .

بيد أن ما نريد أن نؤكد لطلاب المعرفة الصحيحة -
عن عالم الغيب - ونؤكد لطلاب الايمان المطمئن : هو
أن وسيلة ذلك : انما هى : التوبة النصوح ، انها تستخرج
حظ الشيطان ثم تأتى بالسكينة ، والتوبة النصوح :
سبب مباشر - بتوفيق الله - لملء القلب ايمانا ، بعد أن
امتلا رافة ورحمة ، ثم انها السبيل لتنزل الحكمة - وهى
المعرفة اللدنية - أرسالا ، فيفيض بهما القلب هداية
وارشادا :

« واتقوا الله ويعلمكم الله » (١) .

وان من التزم العبودية - واللينة الاولى فيها انما هى

(١) البقرة ٢٨٢

التوبة - : فان الله سبحانه يأتيه برحمة من عنده ، ويعلمه من لدنه علما .

استخرج جبريل حظ الشيطان من قلب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في سن مبكرة ، فكان صلوات الله وسلامه عليه - كما تقول السيدة آمنة :

« والله ما للشيطان عليه من سبيل » .

وحقيقة أنه لم يكن للشيطان عليه من سبيل ، فقد عصمه الله عصمة تامة عن الرجس حياته كلها .

لقد كانت مكة - حينما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شابا فتيا قويا تعج بمختلف الملاذ الشهوانية الدنسة :

لقد كانت حانات الخمر منتشرة فيها ، وكذلك البيوت المريبة ، وفي هذه وتلك المغنيات ، والراقصات ، والمأجنات ، وكان الشباب يتهالك على كل ذلك ويتهاقت عليه وأراد الله ، أن يكون رسوله بمنأى عن كل ذلك .

ذكر البخارى عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال :

« ما هممت بشيء من أمر الجاهلية الا مرتين » .

أما هاتان المرتان : فان سيدنا عليا رضي الله عنه : يتحدث عنهما - على ما يروى ابن كثير - فيقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ما هممت بشيء مما كان اهل الجاهلية يهمون به الا ليلتين ، كلتاهما عصمنى الله عز وجل فيهما : قلت ليلة لبعض فتيان مكة - ونحن في رعاء غنم أهلها - فقلت لصاحبي :

« الا تبصر لى غنمى حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان » ؟ .

فقال : بلى .

قال : فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة ،
سمعت عزفا بالغرايل والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ .
قالوا : تزوج فلان فلانة .

فجلست أنظر ، فضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى
إلا مس الشمس .

فرجعت الى صاحبي فقال : ماذا فعلت ؟ .

فقلت : ما فعلت شيئا ، ثم أخبرته بالذى رأيت .
ثم قلت له ليلة أخرى : ابصر لى غنمى حتى أسمر ،
ففعل فدخلت فلما جئت مكة ، سمعت مثل الذى سمعته
تلك الليلة فسألت :

ف قيل : تكح فلان فلانة .

فجلست أنظر ، فضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى
إلا مس الشمس .

فرجعت الى صاحبي فقال : ما فعلت ؟ فقلت :

لا شيء ثم أخبرته الخبر ، فوالله ما هممت ولا عدت
بعدها لشيء من ذلك ، حتى أكرمنى الله عز وجل بنبوته :
هذا ما كان من أمر عبث الفتيان .

أما ما كان من أمر عباد الأصنام ، فان القصة التالية
توضح الامر :

عن ابن عباس ، قال : حدثنى أم أيمن ، قالت : كانت
بوانة صنما تحضره قريش تعظمه : تنسك لك النساءك ،
ويحلقون رءوسهم عنده ويمكفون عنده يوما الى الليل وذلك
يوما فى السنة .

وكان أبو طالب ، يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول
الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد مع قومه

فياي رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حتى رأيت إيا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب وجعلن يقلن :

ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيدا ولا تكثر لهم جمعا .

قالت : فلم يزالوا به حتى ذهب ، فغاب عنهم ما شاء الله ، ثم رجع إلينا مرعوبا فزعا فقالت له عماته : ما دهاك ؟ قال :

« انى أخشى أن يكون بى لم » (١) .

فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك ، فما الذى رأيت ؟ قال :

« انى كلما دنوت من صنم منها : تمثل لى رجل أبيض يصيح بى وراءك (٢) يا محمد : لا تمسه » . قالت :

« فما عاد الى عيد لهم حتى تنبأ » .

لقد كانت حياته صلوات الله وسلامه عليه شرحا مستفيضا وتوضيحا كاملا ، وتعبيرا تاما لما ذكره ابن خلدون وما يتفق عليه العقلاء ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة : من أن ذلك من علامات الأنبياء :

« انه يوجد لهم قبل الموحى ، خلق الخير والزكاة ، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع ، وهذا هو معنى العصمة وكأنه مغطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها وكأنها منافية لجبلته » .

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة من حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، مبينة لهذه القاعدة فيقول :

(١) من الجنون

(٢) ارجع وراءك

« وفي الصحيح : انه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة ، فجعلها في ازاره فانكشف ، فسقط مغشيا عليه حتى استتر بازاره .

ودعى الى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب ، فاصابه غشى النوم الى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئاً من شأنهم » :

ومضت فترة الشباب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو طاهر زكى : طاهر من الآثام التى تلتبس الشباب فى مجتمعاتهم ، وزكى لانه بعيد عن الشرك لم يسجد لصنم قط صلوات الله عليه وسلامه .

الوحي

ما قبل الوحي :

ان كتب السيرة : لا تحدثنا عن حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه قبل بعثته . الا بالندر القليل - القليل جدا - ويمكن تلخيص ذلك في صورة مجملة - كما يلي :
بعد أن استكمل الرسول الرضاع ، وبلغ حوالى الأربع سنوات : عادت به حليمة رضى الله عنها ، الى أمه : آمنة بنت وهب . فلما بلغ ست سنين خرجت به الى أخواله : بنى عدى بن النجار بالمدينة تزورهم به ومعه أم أيمن تحضنه ، وهم على بعيرين ، فنزلت به فى دار النابغة ، فأقامت به عندهم شهرا .

ثم رجعت به الى مكة : فلما كانت بالأبواء توفيت ودفنت هناك ولم ينس الرسول صلوات الله وسلامه عليه المكان الذى دفنت فيه أمه . فلما مر فى عمرة الحديبية بالأبواء قال : « ان الله قد أذن لى فى زيارة قبر أمى » . ثم أتاه فأصلحه وبكى عنده وبكى المسلمون لبكاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبل له : ذلك ، فقال : أدركتنى رحمته فبكيت .

ورجعت به أم أيمن : على البعيرين اللذين كانا معهما : واستمرت أم أيمن تحضنه بعد وفاة أمه ، وعندما وصل مكة قبضه اليه جده : عبد المطلب وضمه ورق

عليه رقة لم يرقها على ولده ، وكان يقربه منه ويدنيه ، ويدخل عليه اذا خلا ، واذا نام ، وكان الرسول يجلس على فراش جده ، فيريدون منعه ، فيقول عبد المطلب حينما يرى ذلك : « دعوا ابني انه ليؤنس ملكا » .

ورآه مرة عبد المطلب بعيدا عن رعاية ام ايمن ، فقال لها : « يا بركة لا تغفلي عن ابني ، فاني وجدته مع غلمان قريبا من السدرة وان اهل الكتاب : يزعمون ، أن ابني هذا نبي هذه الامة » .

ولما توفي عبد المطلب ، قبض ابو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يكون معه ، وكان ابو طالب لا مال له ، وكان يحبه حبا شديدا لا يحبه ولده ، وكان لا ينام الا في جنبه ، ويخرج فيخرج معه وصب به ابو طالب صباية لم يصب مثلها بشيء قط ، وكان يخصه بالطعام ، وكان اذا اكل عيال ابي طالب ، جميعا او فرادى لم يشبعوا واذا اكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا ، فكان اذا اراد أن يقدِّمهم قال : كما انتم حتى يحضر ابني ، فياتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فياكل معهم فكان يفضل من طعامهم ، وان لم يكن معهم لم يشبعوا ، فيقول ابو طالب : « انك لمبارك » .

واستمر ابو طالب في رعاية الرسول صلوات الله وسلامه عليه لم يسلمه قط ، ولم يخذله ، الى أن توفي للنصف من شوال في السنة العاشرة من حين نبوء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ : ابن بضع وثمانين سنة .

ومما يروى بصدد ابي طالب : أن العباس قال : « يا رسول الله اترجو لأبي طالب ! فقال صلوات الله وسلامه عليه : « كل الخير أرجو من ربي » .

وفي هذه الفترة التي قبل البعثة : كان يتحاكم الى
الى الرسول .

يقول الربيع بن خثيم : « كان يتحاكم الى رسول الله
في الجاهلية قبل الاسلام ، ثم اختص في الاسلام » .

ومن الامثلة المشهورة في ذلك : قضاؤه صلى الله
عليه وسلم في الخلاف الذي كان بين قريش بشأن وضع
الحجر الأسود ، فانه حينما انتهوا في بناء الكعبة الى
حيث يوضع الركن من البيت ، قالت كل قبيلة : نحن
أحق بوضعه ، واختلفوا حتى خافوا القتال ، ثم جعلوا
بينهم أول من يدخل من باب بنى شيبه . فيكون هو
الذي يقضى بينهم ، وقالوا : رضينا وسلمنا بذلك ،
فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من دخل من
باب بنى شيبه فلما رواه قالوا : هذا هو الأمين ، قد
رضينا بما قضى بيننا ، ثم أخبروه الخبر ، فوضع رسول
الله صلى الله عليه وسلم رداءه . وبسطه في الأرض ثم
وضع الركن فيه ثم قال : ليأت من كل ربع من أرباع قريش
رجل فكان في ربع بنى عبد مناف : عتبة بن ربيعة .
وكان في الربع الثاني ، أبو زمعة ، وكان في الربع الثالث
أبو حذيفة ابن المغيرة . وكان في الربع الرابع ، قيس
ابن عدى . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ليأخذه كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ثم أرفعوه
جميعا فرفعوه ، ثم وضعه رسول الله صلى الله عليه
وسلم بيده في موضعه ذلك .

وفي سن الخامسة والعشرين ، تم زواجه صلوات الله
عليه وهناك نترك مجال الكلام لنفسية بنت منبه تقص
علينا النبا بصورته الواقعية ، قالت :

« كانت خديجة بنت خويلد : امرأة حازمة شريفة ،

مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهى يومئذ ،
أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالا :
وكل قومها : كان حريصاً على الزواج منها ، لو قدر
على ذلك ، ولقد طلبوها ، وبذلوا لها الأموال فأرسلتنى
دسيساً الى محمد ، بعد أن رجع فى غيرها من الشام
فقلت :

يا محمد ما يمنعك أن تتزوج ؟ « فقال ما يبدى
ما أتزوج به » قلت : فان كفيت ذلك ، ودعيت الى
الجمال ، والمال ، والشرف ، والكفاءة الا تجيب ؟ قال :
« فمن هى ؟ » قلت : خديجة ، قال : « وكيف لى
بذلك ؟ » قالت : قلت : على ، قال : « فانا أفعل » ،
فذهبت ، فأخبرتها فأرسلت اليه : أن ائت ساعة كذا
وكذا وأرسلت الى عمها فحضر وتزوجها رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وهو ابن خمس وعشرين سنة
وخديجة يومئذ : بنت أربعين ، ولدت قبل عام الفيل
بخمسة عشرة سنة .

وفى ظل الحياة الزوجية : عاش صلوات الله وسلامه
عليه ، عيشة هادئة وديعة ، فيسر الله له بذلك ، ما كان
يشغل به نفسه : من العبادة والتقوى ، وهكذا نشأ صلى
الله عليه وسلم ، طاهر النفس كريمة الخلق ، مجانباً
للمذمومات ، مجانباً للرجس :

لقد سارت به الحياة نقيصة طاهرة : فكانت شرحاً
وتفسيراً . لما سبق أن تحدثنا عنه : من شق صدره
الشريف ، واستخرج حظ الشيطان منه .

ولقد تمثل فيه فى طور الشباب : التضج السكامل
والرجولة الرشيدة .

لقد كان صادقاً فى حديثه ، عطوفاً على من حوله ،

معينا للضعفاء يكتسب ثقة كل من يخالطه .

ولكل ذلك أحبه السيدة خديجة رضوان الله عليها .
ولكنها رضى الله عنها : أحبه لشيء آخر هو : سمو
الروحى وهو العزوف عن اللذائذ المادية الفانية ،
والإتجاه الى الخالد من معالى الأمور .

ان عناية الله : رافقته ، ولاحظه ووجهته فكان خيرا
زكيا وكان أمة وحده وسط هذا الضلال الدينى
والأخلاقى الذى كان يملأ على رجال مكة جميع أقطارهم .
لقد أحبه السيدة خديجة من أجل ذلك .

ومن أجل ذلك سماه قومه « الأمين » .

لقد كان أمينا على نفسه : فلم يسلمها الى مهاوى
الشرك أو الشهوة أو الرجس . وكان أمينا على الناس :
فلم ينتهك عرضا ، ولم يوقع بعض الناس بالنميمة ، ولم
يفتب .

وكان أمينا على الحديث اذا تحدث : فلا كذب
ولا مغالاة .

وكان أمينا على الأسرار : فلم يفشها ، ولم يذمها .

انه : « الأمين » .. اجمع عليها القرشيون ، وقالوها
حينما اختلفوا فى رفع الحجر الأسود ، ووضعها فى
الكعبة ، واوشكت الحرب أن تقع بينهم - كما قدمنا -
ثم استقر رأيهم على الاحتكام لأول داخل عليهم ،
فغمرتهم الفرحة ، حينما راوا محمدا وصاحوا انه
« الأمين » رضينا ، انه محمد .

الوحى : ولقد حبيب اليه الخلاء ، فكان يخلو بغار
حراء ، فيتحنث فيه ، أى : (يتعبد) الليالى ذوات
العدد ، قبل أن ينتزع الى أهله ، ويتزود لذلك . ثم

يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها .
كان صلوات الله وسلامه عليه ، يفادر مكة منغمسة
فى الضلال ليعتكف فى غار حراء متعبدا حتى قالت
العرب : « ان محمدا قد عشق ربه » .
ولكن اما آن لهذا الضلال الذى يخيم على مكة
ان ينقشع .. ؟

اما آن لهذه الظلمة ان تنجلي ؟ .
اما آن لهذه الأصنام ان تتحطم ! .
اليس هناك أمل فى قبس من نور . أو إثارة من علم ،
أو رحمة من عند الله ، أو هداية من لدن مانح الهدى
والرشاد ؟ ..

ويلجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الله ،
يستغيث به ، ويستعيذه ، ويرجوه ، ويلج فى الرجاء ،
ويتذلل ، ويطلب منه الرحمة له ولقومه .

وتمضى الأيام وهو فى كفاح المستميت ، وجهــــاد
المستبسل ، يتجه الى الله فى الصباح ، ويتجه اليه فى
الظهر ، ويتجه اليه فى الأصال ، ويتجه اليه فى مقبب
الشمس ، ويتجه اليه حينما تلمع الكواكب .

انه مهاجر الى الله فى كل لحظة ، وفى كل نفس من
أنفاسه ، وفى كل طرفة عين ، وفى كل نبضة قلب ،
وفى كل همسة من همسات الضمير :

ان حياته كلها لله ، ومع ذلك فان الأيام : تمر ،
والسنين تمضى ولا يزال الظلام مخيما فوق أرجاء مكة ،
ولا تزال الأصنام فوق بيت الله : شارة الضلال وعلم
الانحراف .

ويضاف الرسول صلى الله عليه وسلم خضوعه

وتذللّه ، ويضاعف رجاءه وأمله ، ويجاوز الأمل والخوف والقلق ، فيضاعف التذلل والخضوع ، والالتجاء الى الله حتى أصبح صلوات الله وسلامه عليه فى النهاية ، وكأنه صفاء من الصفاء ، ونور من النور . . فلما استوت على الجودى ولما كاد زيتها يضىء ولو ثم تمسسه نار . . وفى ليلة من الليالى . بينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم معتكفا فى غار حراء كعادته كل عام . وفى شهر رمضان المبارك . . . تحطم نهائيا ذلك الحاجز الذى يفصل بين الكسب البشرى الموفق من جانب ، والاصطفاء الالهى والاجتباء الربانى من جانب آخر أو بتعبير آخر - ذلك الحاجز الذى يفصل بين الولاية والنبوة .

لقد جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك .
فقال :

« اقرأ » .

قال : « ما انا بقارىء » .

قال : فأخذنى فغطني حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال :

« اقرأ » .

قلت : ما انا بقارىء . فأخذنى فغطني الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال :

« اقرأ » .

فقلت : ما انا بقارىء ، فأخذنى فغطني الثالثة ، ثم أرسلنى فقال :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم . » (١) .

(١) الملق : ١ ، ٢ ، ٣

فرجع بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال : زملوني ، فزملوه ، حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة وأخبرها الخبر :

« لقد خشيت على نفسي » فقالت خديجة :

« كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف . وتعين على نوائب الحق » .

فانطلقت به خديجة ، حتى اتت به ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى بن عم خديجة .

لقد كان ورقة : عربيا أصيلا من ذروة بيوتات قريش .

وهو كما يروى صاحب الاغانى - : « أحد من اعتزل عبادة الأوثان في الجاهلية ، وطلب الدين ، وقرأ الكتب ، وأمتنع من اكل ذبائح الأوثان » .

طلب ورقة الدين ولم يكتف في طلبه باللغة العربية ، بل لعل اللغة العربية اذ ذاك : لم تكن تسغفه بما يريد من معرفة فتعلم العبرانية .

يقول الامام البخارى عنه :

« وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب » .

وهو القائل هذه الآيات الشائعة في الاوساط المؤمنة :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته
يبقى الاله ويودى المال والولد

لم تفن من هرمز ، يوما خزانته
والخلد قد حاولت عاد فما خلدا
ولا سليمان اذ دان الشمعوب له
والجن والانس تجرى بينها البرد (١)

ولقد سئل عنه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه
فيما بعد فقال :

« قد رأيته في المنام : كان عليه ثيابا بيضا ، فقد أظن :
أن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض » .

وقد كان ورقة : معروفا بالعقل الناضج ، والمعرفة
الواسعة ، والإخلاص المخلص ، وقد كان في فترة بدء
الوحي هذه : « شيخا كبيرا قد عمى ، أى أنه مر
بالتجارب الكثيرة في الدين والدنيا ، وأصبح لا يرجو
الا حسن الخاتمة ، والعمل - ما استطاع - في سبيل
الله » .

من أجل كل ذلك انطلقت السيدة خديجة بالرسول
صلوات الله وسلامه عليه اليه وقالت له :

« يا ابن عم اسمع من ابن أخيك » .

فلما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر
ما رأى ، قال ورقة دون تردد ولا تلثم ولا انتظار :

« هذا هو : الناموس الذي نزل الله على موسى » .

قال ذلك في يقين جارم ، وفي إيمان مؤمن .

أما الأسباب التي دعت ورقة الى هذا القول : فإن
منها لا شك : معرفته بحياة الرسول صلوات الله وسلامه
عليه : لقد كانت حياة طاهرة عفيفة ، كان صلوات الله
وسلامه عليه عازفا عن طلب المجد الزائف ، والجاه

(١) البرد : جمع بريد ، رعو : الرسول

المفتعل ، وكان بعيدا عن أن يكون عبدا للدنيا ،
ولقد سمع ورقة حديثا يعكس صورة صحيحة
مخلصة للصدق الصادق . وسمع هذا التعبير البريء
عن عنصر المفاجأة في الموضوع . ان الحديث لا يتسم
بمنطق مروي . ولا بتفكير مدبر ، ولا بمحاولة أيا كانت
للبليس والزيف . انها البراءة المطلقة .

لقد فاجأه الملك على غير انتظار ، وعلى غير توقع ، وفاجاه
في خلوه يرجو فيها رحمة الله ، ويأمل فيها رضاه ،
وفاجاه بأمر لم يكن له على بال .
« اقرا » .

« ما انا بقارىء » .

ففاجاه الملك بأمر غريب آخر ، لقد أخذه ، ففطه حتى
بلغ منه الجهد ، ثم أرسله ، وقال له من جديد : « اقرا »
وتكرر ذلك .

ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم « يرجف
فؤاده » .

لقد غمره الروع ، وما ان وصل الى المنزل حتى
صاح :

« زملونى زملونى » .

فلما ذهب عنه الروع ، قص على السيدة خديجة رضى
الله عنها ما رأى ثم قال :

« لقد خشيت على نفسى » .

ان كل ذلك : برهان واضح على الصدق ، وعلى
الاخلاص ، فاذا ما أضيف ذلك الى ما يعرفه ورقة من
حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فان ثمرة ذلك :
التصديق والإيمان .

بيد ان النور الذى غمر ورقة ، انما كان اشعاع قوله تعالى :

« اقرا باسم ربك الذى خلق » (١) .

حينما سمع ورقة اول آية من القرآن .

« اقرا باسم ربك الذى خلق » ! .

لم يملك آمن بأن هذا الذى ابتلى - انما هو : وحى من السماء .

ان : « اقرا باسم ربك » . تنص على ان القراءة . لا تكون باسم وزير ، ولا امير ، ولا باسم منفعة شخصية ، ولا باسم مصلحة اقليمية ، ولا باسم غاية مادية ايا كانت ، ولا باسم وطن أو بيئة ، وانما هى : باسم الله ، واذا كانت باسم الله ، فانها تفيد الشخص ، باعتباره فردا ، وتفيد المجتمع الخاص الذى نسميه : « وطننا » وتفيد المجتمع الاسلامى العام ، بل وتفيد الانسانية جمعاء .

واذا ما تجردت القراءة لله تعالى ، وكان هدفها الاول والاخير هو : الله : مصدر الخير والنور . كانت خيرا ، وكانت نورا فى جميع الأرجاء وفى جميع الأزمان .

وما كان يقصد القرآن قط بهذه الكلمة الاولى : القراءة وحسب وانما كانت القراءة : رمزا لكل ما ياتيه الانسان فى الجانب الايجابى وكل ما يدعه الانسان فى الجانب السلبى .

ان هذه الكلمة الاولى : تريد أن تقول : « اقرا باسم ربك ، تحرك باسم ربك ، تكلم باسم ربك ، اعمل باسم ربك . . أما اذا امتنعت عن حركة أو فعل : فينبغى أن

(١) الملق : ١

يكون ذلك أيضا باسم ربك ويكون معنى الآية في النهاية : جرد حياتك كلها وكيانك كله : أسبابا وغايات لله سبحانه وتعالى » .

وإذا كانت الآية الكريمة : واضحة المعنى في الجانب الإيجابى الذى يحث على القراءة ، والذى يحث عن أن تكون القراءة باسم الله . فان الجانب السلبى ، قد نزلت فيه - فيما بعد - آيات صريحة الدلالة واضحة المعنى ، يقول الله تعالى :

« ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وانه لفسق » (١) .

وأما ما ذبح على النصب : فلم يرد به وجه الله تعالى ، فهو أيضا فسق . لأنه لم يذكر اسم الله عليه ، فكل ما لم يذكر اسم الله عليه اذن يجب الامتناع عنه . أما الاقدام عليه فانه فسق يتفاوت فى درجته ، من الرجس زيادة ونقصانا .

وهكذا يضعنا الاسلام منذ : « اقرأ باسم ربك » أى منذ اللحظة الأولى من تاريخه ، على قمة الاخلاص ، وعلى قمة الاحسان وفى خضم من التقوى ، وعلى السنام من الصدق . فما « دامت الحياة كلها لله : فليس هناك مجال للكذب ، والرياء ، والنفساق ، والخديعة وارادة غير الله بالاعمال » .

اقرأ .. والتربية

ويقول الله تعالى فى هذه الآية الاولى .
« اقرأ باسم ربك الذى خلق » (١) .

ولم يقل : اقرأ باسم الله . ذلك : لانه اراد سبحانه ،
منذ البدء أن يشير الى أن هذا الدستور الالهى النازل
من السماء انمسا هو تربية انه ينزل باسم الربى ،
وما دامت هذه التربية الهية المصدر فهى اذن محكمة
الاحكام كله ، كاملة فى جميع جوانبها ، وقد قال الله
تعالى - فيما بعد - عن هذا الدستور :

« كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم
خبير (٢) » .

وقال الله تعالى :

« لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل
من حكيم حميد » (٣) .

والتربية التامة ، تشتمل على جانب العقيدة ،
وجانب الاخلاق وجانب التشريع .

ولقد نزل الدستور الالهى على التوالى مبينا . لكل
هذه الجوانب مفصلا لها ، ولكن الله سبحانه وتعالى

(٢) هود : ١

(١) الملق : ١

(٣) فصلت : ٤٢

بين في هذه الآية التي بين أيدينا . أن هذه التربية يجب أن تتقبل دون تشكك أو تردد لأنها من الذي خلق ، ذلك أن الذي خلق ، كون كل خلية في الجسم ونسقتها مع غيرها . لتؤدي ويؤدي المجموع وظائف معينة هذا الذي فعل ذلك ، محيط علما بالإنسان المربي ، فهذه التربية ليست من كائن لا صلة له بالمخلوق وإنما هي تربية الخالق نفسه الذي أحاط بدقائق الخلق وعرف ما تحتاج إليه مخلوقاته ، وعرف الضار والنافع وعرف الخير والشر ، فتربيته اذن قيادة على علم وهداية ، على بصيرة وهي من أجل ذلك كله «تربية خالدة» لا تختلف باختلاف الأزمنة والامكنة ، لأن الإنسان ، هو الإنسان أينما وجد وأينما كان لم يتبدل خلقا بخلق ، ولا تركيبا بتركيب .

إقرأ .. والإخلاص

حينما سمع ورقة هذه الكلمة الأولى ... لم يملك أن آمن ، وماذا يمكن أن تقول ، لشخص تجرد الى الله ، ويدعوك أن تتجرد اليه سبحانه ، شخص لم يطلب مالا ، ولا جاهاً ، ولا زعامة ، ولا ملكاً انه يريد أن تقرأ الانسانية كلها باسم ربها ، وأن تقوم في كيانها كله على أساس من تربية ربها . ماذا يمكن أن تقول له ؟
يمكن أن تقول له أنك كذاب ، فما هو الصدق إذن ؟
يمكن أن تقول له : أنك منافق ، فأين هو الاخلاص ؟
ان هذه الكلمة الأولى ، قادت ورقة ، فور سماها الى الايمان .

إقرأ .. والعِلم

ونعود اليها من جديد ، ونرى اشارتها الى معان
أجملناها فيما سبق ، ونريد أن نفصل فيها بعض
التفصيل :

كانت : « اقرأ » دعوة أمرة ، الى الثقافة ، الى
العلم ، الى الفكر ، الى البحث المستفيض في السماء
وفى الارض ، وفى الجبال والبحار ، وفى كل ما خلق
الله تعالى . من كائنات صغرت أم كبرت انها .. اقرأ
باطلاق ، انها : اقرأ دون تحديد ولا تقييد : اللهم الا
أن تكون باسم الله .

ولقد اتسم الاسلام ، منذ هذه الكلمة بالطالع العلمى:
كسمة تجاور السمات الأخرى ، التى سنتحدث عنها
فيما بعد أن شاء الله تعالى .

« وقل رب زدنى علما » (١) : ذلك احدى شعارات
المسلم ! ومن استوى يومه ، فهو مقبون . ومن لم
يكن الى زيادة فهو الى نقصان وهل يستوى الذين
يعلمون والذين لا يعلمون وأن مداد العلماء المتقين ليوزن
فى ميزان الخير والحسنات بدم الشهداء فیرجع مداد العلماء .
ان الله سبحانه وتعالى : قد امتن علينا فى آيات كثيرة
من القرآن بأنه سخر لنا الليل والنهار والشمس والقمر :
وسخر لنا الأرض والسماء وما بين الأرض والسماء .
والامتنان الالهى بهذا ، معناه : دعوة صريحة

للمسلمين ان يستجيبوا الى التوجيه الالهى ، فيسخرُوا
كل ذلك بالعلم والمعرفة ويمتلكوا الكون مستعملين
الملاحظة والتجربة فى نفع الانسانية ولكن العلم والمعرفة
فى الاسلام : لا يقتصران على الجانب المادى . لان النظرة
الحديثة الاسلامية ، اوسع بكثير ، واعمق من النظرة
الحديثة الاوربية التى تقصر العلم على الجانب المادى .

ان العلم المادى : علم تسخير الكون ، بحث عليه
الاسلام ، ولكنه لا يقف عنده ، فغاية المسلم : تتمثل
فى قوله تعالى : « وان الى ربك المنتهى » (١) .

وان : « اقرأ باسم ربك » توجهنا مباشرة نحو هذا
المنتهى ، العلم : عبادة ، واذا كنا - كمسلمين - مدعوين
الى تسخير الكون ، مأمورين بتسخيره فى سبيل الله ،
وتذليله رجاء مرضاة الله فنحن ، بهذا : متجهون الى
الله غير ناظرين الى هذا التسخير ، وانما الى الكون ،
وبذلك : يكون التسخير نفسه عبادة .

« فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى
الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة
ينحكها : فهجرته الى ما هاجر اليه » (٢) .

فالسيطرة على الطبيعة ، فى الوضع الاسلامى
الصحيح هجرة الى الله .

انها قراءة باسمه ، فهى داخلية فى نطاق : « اقرأ
باسم ربك » .

واذا قرأت باسم ربك : فانت عابد فى اعمالك وفى
اقوالك .

والعلم فى الاسلام ، على الوضع الصحيح ، اذن :
عبادة ، حتى فى الجانب المادى منه .

(١) النجم : ٤٢ (٢) من حديث البخارى باب بدء الوحى

ولا يتأتى : ولن يتأتى ، أن يقف الاسلام عقبة في سبيل العلم ، وأن يتعارض الاسلام مع العلم الحديث . ان مشكلة التعارض بين الدين والعلم . انما نشأت في أوروبا بعيدة كل البعد عن الروح الاسلامية التي حثت الانسانية على التعليم والتي ولد المنهج العلمى الذى يسمونه : « المنهج الحديث » بين ربوعها والتي انشأت على أساس من هذا المنهج حضارة ضخمة ، لا تزال تكشف كل يوم الكثير من أبحاثها العميقة ، وما من شك في أن الحضارة الاسلامية ، هي التي قد قدمت للحضارة الغربية الحديثة منهجها ، وقدمت لها السكك من الحقائق العلمية في كثير من المجالات المختلفة .

ان المنهج العلمى الحديث في أوروبا ، يرجع الى « روجر بيكون » فهو الذى اذاعه ونشره في أرجاء أوروبا . ويتحدث الأستاذ « بريفولت » في كتابه « بناء الانسانية » فيقول عن « روجر بيكون » :

انه درس اللغة العربية ، والعلوم العربية في مدرسة ، اكسفورد على خلفاء ، العرب في الأندلس ، وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذى جاء بعده - الحق في أن ينسب اليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي ، فلم يكن ، روجر بيكون الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين الى أوروبا المسيحية ، وهو لم يعمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية ، وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة ، والمناقشات التي دارت حول واضع المنهج التجريبي : هي طرف من التحريف الهائل ، لأصول الحضارة الأوربية .

وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر ، « بيكون » ، قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس في لهف على

تحصيله في ربوع أوروبا (١) .

ويقول ، « بريغولت » أيضا :

لقد كان العلم ، أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .

ان المبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في اسبانيا ،

لم تنهض في عنفوانها ، الا بعد مضي وقت طويل على

اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ، ولم يكن

العلم وحده ، هو الذي أعاد الى أوروبا الحياة بل ان

مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الاسلامية

بعثت باكورة أشعتها الى الحياة الأوربية (٢) ا هـ .

واذا كان الاسلام ، هو الذي أنشأ هذا المنهج وهذا

العلم ، فمن الطبيعي الا يتعارض معه .

على ان مسألة التعارض بين الدين والعلم ، إنما هي

مسألة وهمية اذا نظرنا الى حقيقة الأمر .

وذلك أن العلم دائره : المادة والحس ، أما الدين ،

فدائره : « ما وراء الطبيعة » والخير والفضيلة ، فهما

لا يلتقيان في الموضوع فكيف يتعارضان .

ان ملاحظة العصر الحاضر : يتوهمون مشاكل ،

لا أساس لها ثم يضعونها على بساط البحث ، ويتناقشون

فيها ويتجادلون ، وعلى مر الزمن ، يضيف الآلاف عليها

— وهي وهمية — صورة من ظلال الحقائق فيظن بعض

الناس أنها مشاكل جدية بالبحث والنظر ، ومن ذلك

مسألة التعارض بين العلم والدين ، مع أنه ، لا اتحاد

بين موضوعيهما .

(١) تجديد التفكير الديني في الاسلام ، تأليف محمد أقبال ، ترجمة

الاستاذ عباس محمود

(٢) المصدر السابق .

العلم في الاسلام أوسع دائرة

واذا اقتصرنا أوربا على العلم المادى ، فان الاسلام ، لا يقف عند ذلك ، وانما يوجه الانسانية الى مصدر آخر للعلم والمعرفة ، هو القلب أو هو الروح والبصيرة .

ان الاسلام يوجه الانسانية الى المعرفة الاشرافية ، او الكشفية او الالهامية ، ويجمع الاسلام الاتجاه العلمى الحديث الى الاتجاه البصرى فى قوله :

« ان السمع ، والبصر ، والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (١) ، فالسمع ، والبصر ، هما أساس العلم المادى ، علم التجربة والملاحظة أما القلب : فانه أساس العلم الالهامى .

ان الله سبحانه وتعالى ، يوجه المسلم الى الملاحظة والتجربة ، ويوجهه ايضا الى الاستشراق ، للهداية والنور القلبى عن طريق الخلق الكريم ، والتقوى ، والاخلاص ، وحب الانسانية ، والمعاونة فى الخير .

واذا كان الاسلام ، اوسع نظرة ، فى الجانب العلمى من الحضارة الحديثة ، وأدق وأشمل ، فانه يختلف معها اختلافا جذريا حاسما فى مسألة الارادات والثواب ، وفى

(١) الاسراء : ٣٦

أمر الأسباب والبواصت ، وفى اتجاه الغايات والأهداف .
ان الحضارة الحديثة تقول :

العلم لا صلة له بالأخلاق .

أو تقول العلم لا أخلاقى .

والعلم فى نظرها ، لا شأن له بالخير والشر .

ولكن الاسلام ، يجعل أسس العلم متسعة بالخير ،
ويجعل غايته منغمسة فى الخير ، ويجعل من العلم قربى
الى الله ، ويجعل منه عبادة الله انه سبحانه يجعله باسمه
الكريم .

ان العلم فى الجو الإسلامى قراءة باسم الله .

ومن هنا كانت حضارة الاسلام ، حضارة رحمة
وهداية لا حضارة تدمير وتخريب .

« وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » (١) .

تلك حقيقة فى الدين الإسلامى ، سواء نظرنا الى
أساسه أو نظرنا الى غايته .

أما الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، فانه
« رحمة مهداة » .

الجهر بالدعوة وأثبت الرسالة

مكثت الدعوة اسلامية سرية (١) ثلاث سنوات ، ثم أمر صلوات الله وسلامه عليه بالجهر بها ، فصعد على الصفا فقال :

يا معشر قريش .

فقلت قريش : محمد على الصفا يهتف . فاقبلوا واجتمعوا .

فقالوا مالك يا محمد ؟ :
قال :

أرايتكم لو اخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل اكنتم مصدقي .

قالوا : نعم .

أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذبا قط .
قال :

« فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

يا بنى عبد المطلب . يا بنى عبد مناف . يا بنى
زهرة ... حتى عدد الأفخاذ من قريش .

(١) مرحلة سرية الدعوة ذات أهمية خاصة في منهج العمل مع الجماعة
اذ هي مرحلة اعداد القيادة المحلية .

ان الله امرنى ان انذر عشيرتى الأقربين ، وانى لا املك
لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيبا الا ان
تقولوا : « لا اله الا الله » .

واذا كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قد
طرح الثقة على قريش برفعه علم الأمانة هذا فى وجوههم
فانه كان مطمئنا واثقا من أن حياته هى من الصفاء بحيث
لم يشبها ما يجعل رأى قريش فيه قبيحا . لقد كانت
حياته ، البراءة الكاملة ، والطهر التام وهذا ما دعاه الى
أن يتحدث ، فى صراحة وأن يعلن فى وضوح ، أن حياته
ثبت صدق ما يقول .

ولو تمثلت الأمانة - الصدق والاخلاص - فى كل من
يحيطون به لما كان فى حاجة الى رفع علمه هذا ، فقد
كان يكفى الاخبار بأنه رسول فتكون الاستجابة .

وقد آمن بمجرد هذا الاخبار كثيرون ، لما توفر فيهم
من الصدق والاخلاص لأنفسهم وللآخرين . أى لما توفر
فيهم من الأمانة . لقد آمنت خديجة ، وآمن أبو بكر ،
وآمن ورقة وغيرهم بمجرد أن أخبرهم بأمره ، آمنوا
لما يعرفونه فيه ولما يعلمونه من حياته . ولقد أقر بهذه
الصفة - صفة الأمانة - أبو سفيان ، فى وقت كان فيه
من أشد أعداء الرسول :

سأله هرقل قائلا : هل كنتم تتهمونون بالكذب قبل أن
يقول ما قال ؟ .

فقال أبو سفيان : لا ، وكان استنتاج هرقل : أعرف
أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .
وسأل هرقل أبا سفيان أيضا عما اذا كان قد أثر عن
محمد غدر ؟ فأجاب أبو سفيان بالنفى .

فقال له هرقل : سألتك هل يغدر فذكرت أن لا ،

وذلك الرسل لا تغدر .

أما اثبات الرسالة فقد تحدث القرآن الكريم عن المعجزة الكبرى وهى القرآن ، وتحدى العرب به ، اقد تحداهم به فى عنف وتحداهم متدرجا بهم ، اذ طلب اليهم :

أولا : أن يأتوا بمثله فقال الله تعالى :

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (١) » .

فلما عجزوا طلب اليهم أن يأتوا بعشر سور مثله :
« أم يقولون افتراه ، قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله أن كنتم صادقين » (٢) .

فلما عجزوا طلب اليهم أن يأتوا بسورة من مثله :
« وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله أن كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » (٣) .
عن كل ذلك عجز المشركون ، فثبت : أن هذا الكتاب من لدن الله .

أما عن حياته صلوات الله وسلامه عليه : فان القرآن تحدث عنها من زوايا مختلفة .

لقد تحدث عنها فى صراحة لا لبس فيها .
وتحدث عنها فى اشارات ذات مغزى ، وتركنا ، فضلا

(٢) هود : ١٣

(١) الاسراء : ٨٨

(٣) البقرة : ٢٣ ، ٢٤

عن ذلك ، نستنتج من الاخبار الكثيرة التى قصها عنه :
جوانب لا تحصى من السمو الاخلاقى الكريم :

١ - ولقد تجرد صلوات الله وسلامه عليه من كل
مطمع دنيوى :

« قل ما سالتكم من اجر فهو لكم ، ان أجرى الا على
الله ، وهو على كل شئ شهيد » (١) .

٢ - ولقد لبث فيهم ، من قبل ذلك ، اربعين عاما ،
فلم يحدثهم بنبوة ولا برسالة .

« قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا ادراكم به فقد
لبثت فيكم عمرا من قبله افلا تعقلون » (٢) .

٣ - ويطلب اليهم القرآن الكريم ان يتفكروا فى امر
صاحبهم هذا الذى نشأ بينهم ، وترعرع على مرأى
ومسمع منهم :

« قل انما اعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ،
ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة ، ان هو الا نذير
لكم ، بين يدي عذاب شديد » (٣) .

ويشرح الزمخشري هذه الآية شرحا لطيفا فيتناول
ما ملخصه :

انما اعظكم بواحدة ، ان فعلتموها اصبتم الحق
وتخلصتم ، وهى ان تقوموا لوجه الله خالسا ، اثنين
اثنين ، او واحدا واحدا : « ثم تتفكروا » فى امر محمد
صلى الله عليه وسلم وما جاء به .

اما الاثنان : فيتفكران ، ويعرض كل واحد منهما
محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه متصادقين ،

(٢) يونس : ١٦

(١) سبأ : ٤٧

(٣) سبأ : ٤٦

مثنائين لا يعيل بهما اتباع الهوى ولا ينض لهما عرق
عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح
على جادة الحق وسننه ، وكذلك الفرد يفكر فى نفسه
بعدل ، من غير أن يكابر ، ويعرض فكره على عقله وذنه
وما استقر عنده : من عادات العقلاء ، ومجارى أحوالهم .

والذى أوجب تفرقهم مثنى وفردى : أن الاجتماع
مما يشوش الخواطر ويمنع من الروية ، ومع ذلك يقل
الانصاف ويكثر الاعتساف .

وقد علمتم : أن محمدا صلى الله عليه وسلم ما به
من جنة . بل علمتوه ، أرجح قریش عقلا وأصلهم رأيا ،
وأصدقهم قولا ، وأنزههم نفسا ، فكان مظنة لأن تظنوا
به الخير .

وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتكم بآية .

٤ - ويصف القرآن الكريم جانباً من جوانب حياته ،
ويصف دعوته أيضا ، فيقول :

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه
بيمينك ، إذا لارتاب المبطون ، بل هو آيات بينات فى
صدر الدين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا
الظالمون » (١) .

وإذا وقفنا قليلا عند هاتين الآيتين ، فإننا نجد أن
الآية الاولى تريد أن تقول :

انه حتى لو فرضنا أن محمدا صلوات الله وسلامه
عليه كان يقرأ ويكتب ، وأنه كان يتلو من قبله كتابا أو
كان يخطه بيمينه لاقتصر الارتباب على المبطلين فحسب .
والقواعد والمبادئ التى يبشر بها ، كل ذلك ، آيات

بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، لا ينفيها ولا يجحدوها
الا الظالمون والظالمون في كل آونة يجحدون الحق وينكرونها
المنطق السليم .

هـ - ويتوج القرآن الكريم تحدّثه عن الرسول صلوات
الله وسلامه عليه ، بهذه الكلمة العميقة :
« وانتك لعلّ خلق عظيم » (١) .

ان الدعوة الاسلامية آيات بينات في منطق الحق ، وفي
منطق العقول المستنيرة .

وها هو ذا « أكرم بن صيفى » ، أحد حكماء العرب :
ينتهج بفطرته السليمة ، هذا النهج من الاستدلال على
صدق الرسول صلى الله عليه وسلم بدعوته .

يذكر « الألوسى » انه لما ظهر النبى صلى الله عليه
وسلم ، بمكة ودعا الى الاسلام فبعث أكرم بن صيفى ابنه
« حبششا » ، فاتاه بخبره ، فجمع بنى تميم وقال لهم :-
فيما قال :

« ان ابنى شافه هذا الرجل مشافهة ، واتانى بخبره ،
وكتابه : يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه
بمحاسن الأخلاق ، ويدعو الى توحيد الله تعالى ، وخلع
الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد حلف - عرف -
ذوو الراى منكم : ان الفضل فيما يدعو اليه ، وأن الراى
ترك ما ينهى عنه » .

ثم يقول هذه الكلمة الرائعة :

« ان الذى يدعو اليه محمد ، لو لم يكن ديننا لكان في
أخلاق الناس حسنا » .

وقد كان الاستدلال يصدق الدعوة على صدق

الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، هو المنحى الذى سار فيه جعفر بن أبى طالب رضوان الله عليه ، حينما سألته النجاشى عن أمر دينه ، وذلك انه لما فر المسلمون بدينهم الى الحبشة مهاجرين اليها بسبب ما نالهم من تعذيب اليم ، وأرسل القرشيون وفدأ الى النجاشى ، فيه عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص ، لرد المهاجرين الى مكة ، ليعذبوهم من جديد ، ولما التقى الوفد بالنجاشى قال له عمرو بن العاص .

« انه قد لجأ الى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاعوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم : من آبائهم ، وأعمامهم ، وعشائهم ، لتردهم عليهم ، فهم أعلى بهم عينا » أى أبصر بهم « وأعلم بما تابوا عليهم .

فلما سمع النجاشى كلامهم ، رأى أن الحكمة الا يسلم اليهم المهاجرين دون أن يسمع كلامهم وحجتهم ، فأرسل الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلما جاءوا قال لهم : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ، ولا دين أحد من هذه الملل ؟ .

فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب ، فقال له : ايها الملك كنا قسوما أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ..

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وإمانته ، وعفاfe ، فدعانا الى الله ، لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من

دونه : من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء .

ونهاينا عن الفواحش ، وقبول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة .

وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة ، والصيام - وعدد عليه أمور الاسلام - فصدقناه ، وآمننا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا .

فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا ، عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا الى بلادك .

ولما قرأ عليه صدرا من سورة مريم بكى النجاشي ، ثم قال :

ان هذا ، والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكلة واحدة .

ثم التفت الى عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص فقال لهما :

« انطلقا : فلا والله لا اسلمهم اليكما » .

لقد علم النجاشي ، فور سماعه المبادئ الاسلامية « ان هذه المبادئ حقّة ، وأنها آيات بينات ، لا يخفى صدقها على أصحاب الفطر السليمة ، وأعلم أن ما أتى به محمد صلوات الله عليه ، إنما يصدر من المنبع الذي

كانت تصدر عنه رسالة عيسى عليه السلام .
وبعد . فان سيرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه
والمبادئ الاسلامية من اهم الرسائل التي ينبغي أن يتجه
اليها المبشرون بالدين الاسلامي لنشر الاسلام .

على أن هذا النهج من الاستدلال بالدعوة على الصدق
وجعل النظر في الدعوة ، احدى الوسائل التي تسلم مع
غيرها من الملابس الى اليقين بصدق الداعي ، هذا
النهج الذي اتخذه هرقل والنجاشي ، هو النهج الذي
اقره الامام الغزالي ، فانك اذا كثرت النظر في القرآن
والاخبار ، يحصل لك العلم الضروري بكونه صلى الله عليه
وسلم على أعلى درجات النبوة .

وأعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات ، وتأثيرها
في تصفية القلوب ، وكيف صدق في قوله :

« من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

وكيف صدق في قوله :

« من أعان ظالما ، سلطه الله عليه » .

وكيف صدق في قوله :

« من أصبح وهمومه هم واحد - هو التقوى - كماه
الله هموم الدنيا والآخرة » .

فاذا جربت ذلك في ألف ، وألفين ، وآلاف ، حصل
لك علم ضروري لا يتمارى فيه ، بأنه صلوات الله وسلامه
عليه ، على أعلى درجات النبوة .

ان النظرة الى الدعوة الاسلامية في نظر الامام الغزالي
هو أحد الوسائل التي تثبت صدق الرسول صلى الله
عليه وسلم .

وقد تابع هذا الاتجاه في الاستدلال ، العالم الاجتماعي

الكبير ابن خلدون ، وهو يستوعب - في نظرة عامة -
الكثير من الاتجاهات المستقيمة في شأن النبوات ، وننقل
هنا ما كتبه خاصا بموضوع الاستدلال بالدعوة - حينما
تكون الدعوة خيرا محضا ، كالدعوة الإسلامية - على
صدق الرسول فيما يدعو اليه ، يقول :

ومن علامتهم ايضا :

دماؤهم الى الدين والعبادة ، من الصلاة ، والصدق
والعفاف ، وقد استدلت خديجة على صدقه صلى الله
عليه وسلم بذلك ، وكذلك أبو بكر ولم يحتاجا في أمره
الى دليل خارج عن حاله وخلته ، وفي الصحيح :
أن هرقل حين جاء كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ،
يدعوه الى الاسلام أحضر من وجد في بلده قريش ، وفيهم
أبو سفيان ، يسألهم عن حاله ، فكان فيما سأل أن
قال :

بم يأمركم ؟ فقال أبو سفيان : بالصلاة ، والزكاة ،
والصلة ، والعفاف الى ... آخر ما سأل ، فأجابه
فقال :

ان يكن ما تقوله حقا فهو نبي ، وسيملك ما تحت
قدمي هاتين . والعفاف الذي أشار اليه هرقل هو :
العصمة .

« فانظر كيف اخذ من العصمة ، والدعاء الى الدين ،
والعبادة دليلا على صحة نبوته ، ولم يحتاج الى معجزة
فدل ذلك على أن ذلك ، من علامات النبوة » .

وشئ آخر له مجاله الكبير في اثبات الرسالة ،
ذكرته السيدة عائشة رضي الله عنها في حديث « بدء
الوحي » وهو : أن الله سبحانه حجب الى رسوله صلى
الله عليه وسلم الخلاء فكان قبل الوحي يفادر مكة ،

ويبتعد عن حياتها الصاخبة ، التي كان يرى فيها من الضلال الشيء الكثير .

يتركها ليخلو بفار حراء فريدا يتأمل ويرجو ويسجد لله متعبدا خاشعا طالبا رضاه ، آملا في هدايته ، كان يتحنث في هذا الفار ، أى يتعبد فيه الليسالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع الى أهله ويتزود ليعود من جديد الى النسك ، والى العباد .

لم يكن اذن يطلب مالا أو ثراء أو لذة مادية أو جاها أو مجدا عند الناس ، انه يطلب الهداية ويبحث عنها ؛ ولقد وضع عزوفه عن زخارف الحياة وضوحا بينا فى قوله وسلوكه ، وتذكر السيرة النبوية نبأين لهما مغزى واحد عميق :

اما النبأ الاول فهو : أن عتبة بن ربيعة - وكان سيدا فى قومه - قال يوما وهو جالس فى نادى قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم الى محمد ، فأكلمه وأعرض عليه أمورا ، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء .

وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم اليه فكلمه :

فقام اليه عتبة حتى جلس الى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال :

« يا ابن أخى ، انك منا حيث قد علمت ، من البسطة فى العشيرة ، والكمال فى النسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفحت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل مني بعضها .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل يا أبا الوليد أسمع » :

قال : يا ابن أخى : ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا : جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تريد به شرفا سوداك عاينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رثيا تراه لا تستطيع رده من نفسك طلبنا لك الطب وبدلنسا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل : حتى يداوى منه .

حتى اذا فرغ عتبة ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، يستمع منه قال : لقد فرغت يا أبا الوليد ؟ .

قال : نعم .

قال : فاسمع منى .

قال : افعل .

قال : بسم الله الرحمن الرحيم : « حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون : بشرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا فى أكنه مما تدعونا اليه » (١) .

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة انصت لها ، والقى يديه خلف ظهره معتددا عليهما يسمع منه .

ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السجدة ، ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فانت وذاك » .

فقام عتبة الى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف

(١) غصلت : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .
فلما جلس اليهم قالوا : « ما وراءك يا أبا الوليد ؟ »
قال : « ورأيت : أنى سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله
قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .

يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين
هذا الرجل وبين ما هو فيه : فاعتزلوه ، فوالله ليكون
لقوله الذى سمعت منه نبأ ، فان تصبه العرب فلكم
كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكه ملككم ،
وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به » .

قالوا : « سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه » .

قال : « هذا رأى فيه فاصنعوا ما بدا لكم » .

قد يقول قائل : انه لو عرض على محمد صلى الله
عليه وسلم هذا العرض من هيئة تستطيع تنفيذه
لقبل . هذا القول ينقضه : أن عتبة كان مفوضا من
زعماء قريش ، وينقضه أيضا الخبر الآخر الذى ترويه
كتب السيرة :

لقد اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة
وأبو سفيان بن حرب والنضر بن الحارث - أخو بنى
عبد الدار - وأبو البختري بن هشام ، والأسود بن
المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ،
وأبو جهل بن هشام ، عليه لعنة الله ، وعبد الله بن أبى
أمية ، والعاص ابن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج
السهميان ، وأمية بن خلف ، اجتمعوا بعد غروب
الشمس عند ظهر الكعبة ثم قال بعضهم لبعض :

« ابعثوا الى محمد فكلموه ، وخاصموه حتى تعذرنا
فيه » :

« فبعثوا اليه : ان أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك
فأتهم » .

فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا - وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه « وكان عليهم جريصا : يحب رشدهم ويعز عليه عنهم - حتى جلس اليهم فقالوا له :

« يا محمد ، أنا قد بعثنا اليك لنكلمك وأنا والله بما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح إلا جثته فيما بيننا وبينك .

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وأن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وأن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وأن كان هذا الذي يأتيك رثيا ، تراه قد غلب عليك - وكان يسمون التابع من الجن رثيا - فربما كان ذلك ، بدلنا لك أموالنا في طلب القلب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتم به أطاب أموالكم ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى اليكم رسولا وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا ما جئتم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على سأكبر لأمر الله ، حتى يحكم بيني وبينكم » .

هذا العزوف عن المجد والجاه عند الناس ، وعن المال والشراء وعن الدنيا كلها : تؤيد حياته ، صلوات الله وسلامه عليه ، ومن أولها الى آخرها ، ويؤيده القرآن تأييدا حاسما :

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » (١) .

« من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا » (٢) .
« اعلّموا أنّما الحياة الدنيا لعب ، ولهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا الا متاع الفرور » (٣) .

وعن جبير بن نفير رضى الله عنه قال : « دخلت على عائشة رضى الله عنها ، فسألتها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : القرآن » .

وحقيقة الأمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في كل ما يأتيه وفي كل ما يدمه قرآنا مطبقا ، ومن هنا كان قول الله سبحانه وتعالى :

« وانك لعلى خلق عظيم » (٤) .

كانت تأتيه الدنيا فينفقها وهو جالس : « أتى اليه صلوات الله وسلامه عليه سبعون ألف درهم موضعها - كما يروى هارون بن رباب - على حصير ثم قام اليها . يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها .

وبينما هو عائد من حنين ، تكاثرت الاعراب عليه يسألونه ، وخطفوا رداءه فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « أعطوني ردائي ، لو كان لى عدد هذه

(٢) الاسراء : ١٨

(٤) القلم ٤

(١) هود : ١٥ ، ١٦

(٣) الحديد : ٢٠

العضاة - شجر عظيم له شوك - نعما لقسمته بينكم ثم
لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جباناً .
ويقول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه :
« مالى وللدنيا » ٤ .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « عرضت على الدنيا فأبيتها » .
ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - كما يروي
من أنس رضى الله عنه - : أحب انسيان إلى الأنصار
والمهاجرين ، ولكنهم كانوا إذا رأوه لا يقومون له ، لما
يعرفون من كراهيته له « أى القيام له » ويقول صلى الله
عليه وسلم لأصحابه :

« ان الدنيا حلوة خضرة ، وان الله تعالى مستخلفكم
فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » .
ويقول صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم جالسون حوله :
« ان مما أخاف عليكم من بعدى : ما يفتح عليكم من
زهرة الدنيا وزينتها » .

ان الرسول صلوات الله وسلامه عليه : ما كان يتطلع
الى الدنيا في مختلف جوانبها وهو يقرأ قوله تعالى :
« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين
والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة
والانعام والحراث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده
حسن المآب » (١) .

عزوفه صلى الله عليه وسلم عن الدنيا اذن : قضية
هى من البداهة بحيث تفجأ فى النظرة الاولى ، كل
دارس لسيرته صلى الله عليه وسلم .

وحينما رفعه الله اليه ، لم يترك الضياع والعمارات ،
والبساتين ، ولم يترك الآلاف المؤلفسة من الذهب

(١) آل عمران : ١٤

والفضة ، وانما ترك وراءه مبادئ الحق التي اوحاها الله اليه ، والتي مكث طوال حياته يجاهد بقوله وعمله في سبيل اقامتها ونشرها ، ويكافح كفاحاً لا يهدأ ولا يفتر في سبيل تدعيمها ، وترك وراءه رجالاً يؤمنون بهيبته المبادئ ، ويثقون بانهم مكلفون - باعتبارهم من المسلمين - بنشرها واذاعتها بين أرجاء العالم أجمع ، وترك عبيراً يتضوع رحمة ويشع نورا ، منها ما طالبت القرون وتطاولت الأزمنة .

انه صلى الله عليه وسلم هو تلك الصورة الحية للتطبيق القرآني فكان صلى الله عليه وسلم عازفاً من الدنيا ، ما في ذلك من شك ، وكان عازفاً عن الدنيا لبعده وراء الأخرى ، وعزمه المصمم على أن يكون فيما يأتي وفيما يدع مرضياً لله تعالى ، ومن كان كذلك كان صادقاً حتماً .

وعزوفه عن الدنيا من أقوى الأدلة على صدقه وعلى إخلاصه صلوات الله وسلامه عليه .

بيد أن هذا العزوف عن الدنيا : لا يعنى إلا عدم تعلق القلب بها ، ولكن السيطرة عليها ، وامتلاكها ، وتسخيرها في سبيل مرضاة الله : من واجبات كل مسلم ، والمسلم مكافح دائماً في سبيل الله ، ومن أجل مرضاته ، وقد امتلك المسلمون الأول الدنيا ، ودانت لهم المعمورة ، وخضعت لهم المادة ، فاستخدموا كل ذلك في الخير واسعاد الانسانية .

وقد تحدثنا فيما سبق عن الاسلام والسلم ، وعن الاسلام وتسخير المادة وقلنا : ان ذلك عبادة .

وعزوفه صلوات الله وسلامه عليه ، عن الدنيا : من أقوى الأدلة على صدقه ، وعلى إخلاصه .

الإسراء والمعراج

وترقى به الى قباب قوس
 حين وتلك السيادة القعساء
 ورب تسقط الاماني حسرى
 دونها ما وراءهن وراء
 ثم وافى يحدث الناس شكرا
 اذ اتته من ربه النعماء

يقول الله تعالى :

« سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام
 الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ،
 انه هو السميع البصير » (١) .

ويقول سبحانه :

« والنجم اذا هوى ، ماضل صاحبكم وما غوى ،
 وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمه
 شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالافق الاعلى ، ثم
 دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين او ادنى ، فأنوحى الى
 عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتخارونه
 على ما يرى ؟! . ولقد رآه نزلة اخرى ، عند سدرة
 المنتهى ، عندها جنة المأوى ، اذ يفشى السدرة ما يفشى ،

(١) الاسراء : ١٠

ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه
الكبرى « (١) » .

هذه هى الآيات القرآنية عن الاسراء والمعراج .
أما الأحاديث النبوية : فانها كثيرة مستفيضة ، ولقد
رويت عن أكثر من ستة وعشرين صحابيا يكمل بعضها
بعضا .

وتحن هنا لا يعني أن نذكر الموضوع بكل تفصيلاته
فانه معروف عادة للمسلمين وانما الذى يعني ان نذكر
على الخصوص الجانب الاخلاقى فيه ، وجانب
المغزى منه .

ولقد قدم ابن اسحاق - حسبما يروى ابن هشام -
لحديث الاسراء بكلمة جميلة ، يقول فيها :

« وكان فى مسراه ، وما ذكر منه : بلاء وتمحيص ،
وأمر من أمر الله ، فى قدرته وسلطانه ، فيه عبرة ،
الاولى الأبواب وهدى ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق ،
وكان من أمر الله على يقين .

فأسرى به كيف شاء ، وكما شاء : ليريه من آياته
الكبرى ما أراد حتى عاين ما عاين من أمره ، وسلطانه
العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد » .

ومجمع الأمر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
بينما كان نائما ، أتاه جبريل ، فأيقظه وخرج معه ، فإذا
أمامهما دابة بيضاء هى البراق ، وركبها رسول الله
وسارت الدابة ، وجبريل معه - على حد تعبيره صلى
الله عليه وسلم « لا يفوتنى ولا أفوته » حتى انتهى الى
بيت المقدس .

١٢) النجم من ١ - ١٨

فوجد فيه إبراهيم ، وموسى ، وعيسى فى نفر من الأنبياء ، قامهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى بهم ، ثم أتى بأنائين ، بأحدهما : خمر وبالأخر لبن ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم اناء اللبن ، وشرب منه ، وترك اناء الخمر فقال له جبريل :

« هديت للفطرة ، وهديت أمتك ، وحرمت عليكم الخمر » .

تروى كتب السيرة أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : أنه ليلة الأسراء أت ، ففرج صدره ، ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا ، فأفرغه فى صدره الشريف ثم أطبقه . ولما انتهى صلوات الله وسلامه عليه من بيت المقدس خرج به الى السماء وأخذ يرتقى سماء سماء ، ثم تجاوزها جميعا الى سدرة المنتهى ، والى قاب قوسين أو أدنى ، وهناك حيا الرسول صلوات الله وسلامه عليه ربه .

« التحيات لله ، والصلوات والطيبات » .

وحياه الله سبحانه وتعالى :

« السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » .

وقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

« السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » :

وفى هذه اللحظات الخالدة ، التى لا يتأتى أن توصف ، فرض الله سبحانه وتعالى ، الصلاة على الأمة الإسلامية .

عن ابن عباس رضى الله عنه — فيما رواه الامام أحمد — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لما كانت ليلة أسرى بى ، وأصبحت بمكة ، فظلمت امرى ، وعرفت : أن الناس مكذبى » .

قال فمر عدو الله : أبو جهل ، فجاء حتى جلس اليه ، فقال له أبو جهل كالمستهزى :

هل كان من شىء ؟ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

قال : ما هو ؟ .

قال : انه أسرى بى الليلة .

قال : الى أين ؟ .

قال : الى بيت المقدس .

قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ .

قال : نعم :

قال : فلم ير أنه يكذبه ، مخافة أن يجحد الحديث ، إذا دعا قومه اليه .

قال : أرايت أن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتنى ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

فانطلق أبو جهل الى قريش ، فقال :

هيا يا معشر بنى كعب بن لؤى .

قال : فانتفضت اليه المجالس ، وجاءوا حتى جلسوا اليهما .

فقال أبو جهل : حدث قومك بما حدثتنى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انى أسرى بى الليلة .

قالوا : الى أين ؟ .

قال : الى بيت المقدس ؟ .

قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانيها ؟ .

قال : نعم .

فاذا بالقوم بين مصفق ، وبين واضع يده على رأسه متعجبا للكذب ... زعم .

قالوا : وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ وفي القوم من قد سافر الى ذلك البلد ورأى المسجد ؟ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فذهبت أنعت ، فما زلت أنعت حتى التبس على بعض النعت » .

قال : فجيء بالمسجد ، وأنا أنظر حتى وضع دون دور عقيل فنعته وأنا أنظر إليه .

قال : فقال القوم ، أما النعت فوالله : لقد أصاب .

ومن الحسن ، أنه في يوم الحديث عن الأسراء ، ارتد كثير ممن أسلم ، وذهب الناس الى أبي بكر ، فقالوا له : هل لك ، يا أبا بكر في صاحبك ؟ .

يزعم أنه قد جاء هذه الليلة ! بيت المقدس ، وصلى فيه ، ورجع الى مكة .

فقال لهم أبو بكر : انكم تكذبون عليه .

فقالوا لا : هو ذلك . ففى المسجد ، يحدث به الناس .

قال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فمسا يعجبكم من ذلك ؟ .

فوالله ، أنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء الى الأرض ، فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه ثم أقبل حتى انتهى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

يا نبي الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك أتيت بيت المقدس

هذه الليلة ؟ .

قال : نعم .

قال : يا نبى الله ، فصفه لى ، فانى قد جئته ؟ .

قال الحسن : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
فرفع لى حتى نظرت إليه فجعل رسول الله صلى الله
عليه وسلم يصفه لأبى بكر ، ويقول أبو بكر : صدقت
أشهد أنك رسول الله ، كما وصف له منه شيئاً قال :
صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، قال : حتى انتهى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر :

وانا يا أبا بكر : « الصديق » فيومئذ سماه الصديق .

هذا هو الهيكل الذى ترويه الكتب ! لهذا النبأ
الجليل ! يسمعه قوم فلا يصل الا الجوانب الظاهرية
منهم ، فيأخذون فى الجدل الشكلى أكان ذلك فى البيضة ؟
أم كان ذلك فى النوم ؟ أكان ذلك بالروح والجسد ؟ أم
كان بالروح فقط ؟ .

وهل كان ليلاً ؟ أم كان نهاراً ؟ .

وهذه كلها صور من الجدل الذى يثور ، حينما يخف
وزن الايمان فى النفوس .

ويسمع هذا النبأ قوم ، فيصل الى اعماق قلوبهم
فيتجهون فى صورة طبيعية ، الى مغزاه العميق ، وإلى
روحانيته السامية ، ويرون أن هذا النبأ : ينطوى على
توجيهات لا ينبغي أن يمر عليها الناس من السكرام ...
من هذه التوجيهات :

١ - لقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ،
خاتمة سلسلة من الانوار التى يرسلها الله الى العسائم

بين الفينة والفينة : لتهدى الى الرشاد ، ولتقود الى الله ،
ولتسمو بالمؤمنين درجات في معارج القدس ، لتصل
بالجديرين منهم الى الكمال المرجو ، عن طريق الارشاد
الالهى وكان الكتاب الذى انزل عليه صلوات الله وسلامه
عليه ، وهو : القرآن ، خاتم الكتب ، واكملها ومهيما
عليها .

ولان الرسول صلوات الله وسلامه عليه : تخلق
بأخلاق اكمل كتاب ربانى ، فهو اذن : اكمل رسول الله
صلى الله عليه وسلم .

من هنا كانت امامته صلوات الله وسلامه عليه ،
بالرسل والانبياء فى بيت المقدس ، ولانه صلوات الله
عليه اكمل رسول ، كان من اجل ذلك : اقرب المقربين
الى الله سبحانه وتعالى ، لقد تخطى الارضين
والسموات ، وتجاوز السكون كله ، ووصل الى ما لم
يصل اليه بشر ، بل الى ما لم يصل اليه جبريل نفسه عليه
السلام ، لقد وصل صلوات الله وسلامه عليه الى :
« قاب قوسين او أدنى » وكما ان المعنى الذى يدل عليه
نبأ المعراج : من وجود الانبياء والرسل فى السموات ،
ومن ان الرسول صلوات الله وسلامه عليه اخذ يتجاوز
هذه السموات واحدة بعد الاخرى ، ويتجاوز الانبياء
واحدا بعد الآخر ، نقول : كما ان المعنى الذى يدل عليه
النبأ ، معنى مكانى ، فانه ايضا - بل وبطريق اولى -
معنى روحى اى ان الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى
تساميه الروحى فى كل لحظة من اللحظات قد بلغ فى
معرجه الى درجات تجاوزت - فى روحانيتها - آدم فى
سمائه الاولى ، ثم تجاوزت يحيى ، وعيسى عليهما السلام ،
فى سمائهما الثانية ، ثم تجاوزت يوسف عليه السلام فى

سمائه الثالثة ... وهكذا حتى تجاوزت روحيا ابراهيم عليه السلام ، فى سمائه السابعة .

ولقد تجاوز كل ذلك وتجاوز الكون كله الى سدرة المنتهى ، الى شجرة النهاية، الى حيث لا يبلغ ملك مقرب ولا نبي مرسل .

لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، هذا هو مقام الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

ولكن بعض الناس ، ينزل بنا من هذه الافاق العليا والسموات السامية ومن الرحاب الالهى ... ينزل بنا منحدرًا ، فيجادل فى الاسراء والمعراج : اكان رؤية .. أم كان يقظة ؟ .

أستغفر الله ، وأتوب اليه ...

ان ذلك الجدل ، ان دل على شيء ، فانما يدل على ضعف الايمان فى قلب المجادل .

٢ - واذا كانت التوجيهات السابقة : انما كانت لتدلنا على مقام رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فتزداد بذلك تقديرا ، وحبا واتباعا ، فان من هدى الله سبحانه وتعالى ، وتوجيهاته فى نبا الاسراء والمعراج : هذه الرمزيات الاخلاقية التى تربط ربطا محكما بين الدين والاخلاق .

والواقع ، ان الاخلاق فى جو الاسلام : مرتبطة بالدين ارتباطا لا ينفصل : منه تنبع ، وعلى أساسه تقوم ، وعنه تصدر ، انها جزء من الدين الاسلامى ، لا يتجزء ، مصدرها ، هو مصدر الهى ربانى .

وبعض الناس فى العصر الحديث يريد أن يجعل للاخلاق مصادر أخرى .

يريد بعضهم أن يجعل أساس الأخلاق : الضمير ،
بيد أن ذلك خطأ بين ، فالضمير يربى ويكون ، وتربيته
ولونه ، هما شكله ، ونزعتيه واتجاهه ، الذي يتكيف
بحسب الثقافة والبيئة ، والعصر ، والوسط .
ان الضمير يصنع كما تصنع المزييفات ، وهو اذن
مقياس للأخلاق خاطيء .

وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق الى المصلحة
العامة ، ولكن المصلحة العامة ، كلمة غير محددة ، وكل
من يتحدث باسم المصلحة العامة ، انما يتحدث باسم
فكرته هو ، منحرفة كانت هذه الفكرة أو غير منحرفة .
والمصلحة العامة اذن ، كأساس للأخلاق ، انما هي
أساس غير مضمون .

وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق الى المصلحة
الشخصية ، أو الى اللذة ، أو الى المنفعة ، وكل هذا
وارد الغرب الأوربي ، أو الغرب الأمريكى عندما انحرف
هذا الغرب والحد ؟ .

اما وارد الشرق الاسلامى : أو بتعبير ادق ، وارد
الاسلام الالهى فان مقياس الأخلاق فيه : انما هو المبادئ
الدينية ، انما هو آيات القرآن ، وانما هو النضال التى
أوحاها الله سبحانه وتعالى ، هذه الفضائل التى حددها
القرآن فى أسلوب عربى مبين .

وتحدث عنها نبا الاسراء والمعراج فى صور رمزية دالة
هادفة مؤثرة ، وبينتها السنة النبوية الشريفة :

سار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسراه فمر
على قوم يزرعون ويحصدون فى يوم ، كلما حصدوا عاد
كما كان :

فقال صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام :
يا هذا ؟

قال : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله ، تضاعف لهم
الحسنة الى سبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شيء فهو
يخلفه ، وهو خير الرازقين .

ثم أتى على قوم ترضع ردوسهم بالصخر ، كلمسها
وضعت هادئ كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شيء .
فقال : يا هذا يا جبريل ؟

قال : هؤلاء هم الذين تتناقل ردوسهم عن الصلاة
المكتوبة :

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم
رقاع ، يسرحون كما تسرح الأنعام ، يأكلون الصريع
والزقوم ، ورضف جهنم .
فقال : يا هؤلاء ؟

قال : هؤلاء هم الذين لا يؤدون زكاة أموالهم وما ظلمهم
الله وما ربك بظلام للعبيد .

ثم أتى على قوم بين أيديهم : لحم نضيج طيب في
قدر طيب ، ولحم خبيث نيء في قدر خبيث فجعلوا
يأكلون من الخبيث النيء ويدعون النضيج الطيب .

قال : يا هؤلاء يا جبريل ؟

قال جبريل ؟ هذا مثل الرجل من أمتك ، تكون
عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتي امرأة خبيثة ، فيبيت
عندها حتى يصبح ومثل المرأة : تقوم من عند زوجها
حلالا طيبا ، فتأتي رجلا خبيثا فتبيت عنده حتى
تصبح .

ثم أتى على رجل قد جمّسع حزمة حطب عظيمة
لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها .
فقال : ما هذا يا جبريل ! . .

قال : هذا مثل الرجل من أمتك ، يكون عليه أمانات
الناس لا يقدر على أدائها ، وهو يريد أن يزيد عليها .
ثم أتى على قوم تفرّض السنتهم ، وشفاههم بمقاريض
من حديد كلما قرضت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم
من ذلك شيء .

قال : ما هذا يا جبريل ؟ .

قال : هؤلاء خطباء الفتنة .

قال : ثم أتى على حجر صغير يخرج منه : ثور عظيم ؛
فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع .
فقال : ما هذا يا جبريل ! .

قال : هذا مثل الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، ثم
يندم عليها فلا يستطيع أن يردّها .

ثم أتى على واد فوجد فيه ريحا طيبة باردة كريح
المسك ، وسمع صوتا .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟ .

قال : هذا صوت الجنة تقول : رب آتني ما وعدتني ،
فقد كثرت غرفى ، واستبرق ، وحريرى ، وسندسى ،
وعبقريى ، ولؤلؤى ، ومرجانى ، وفضتى ، وذهبى ،
وأكوابى ، وصحافى ، وأباريقى ، ومراكبى ، وعسلى ،
ومائى ، ولبنى ، وخمرى ، فأتني ما وعدتني .

قال : لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن
آمن بى وبرسلى ، وعمل صالحا ، ولم يشرك بى شيئا ،

ولم يتخذ من دونى أندادا ، ومن خشيتى فهو آمن ، ومن
سألنى فقد أعطيته ، ومن أقرضنى جازيته ، ومن توكل
على كفيته ، اننى انا الله لا اله الا أنا لا اخلف الميعاد ،
قد أفلح المؤمنون ، وتبارك الله أحسن الخالقين .

قالت : قد رضيت .

ثم أتى على واد فسمع صوتا منكرا ، ووجد رجلا
منتنة .

فقال ما هذا يا جبريل ا .

قال : هذا صوت جهنم تقول ، رب آتني ما وعدتني ،
لقد كثرت سلاسلي ، وأغلالي ، وسعيري ، وحميمي ،
وخريري ونساقى وعدايبى ، ولقد بعد قعرى ، واشتد
حرى ، فآتني ما وعدتني .

قال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل
جبار لا يؤمن بيوم الحساب .

قالت : قد رضيت .

فسار حتى أتى بيت المقدس .

٣ - ومن الثمار التى جنتها الأمة الاسلامية والتى
كانت من مقاصد اذاعة النبأ :

انفصال ضعاف النفوس ، والشساكين والمترددین ،
انفصال كل هؤلاء عن الأمة الاسلامية الناشئة .

لقد كفر - عند سماع النبأ - من كفر بعد اسلامه ،
وارتد من ارتد بعد ايمانه ، وما كان هؤلاء ، لو بقوا الا
عاملا من عوامل الضعف أكثر من أن يكونوا عاملا من
عوامل القوة .

ان هؤلاء المكيين الذين آمنوا ، وصبروا على الحوادث

القاسية : على التعذيب وعلى الآلام ، وعلى الفتنة في جميع مظاهرها ، ان هؤلاء المكيين الذين صبروا وصابروا ، وتخلصت أنفسهم من جميع النزعات المادية ، ومن جميع الأهواء ، فأصبحت خالصة لله وحده ، ان هؤلاء المكيين الذين كان في تقدير الله سبحانه وتعالى : أن تقوم عليهم الدولة في نشأتها ، والذين من أجل ذلك يجب أن يكونوا مهينين ، لأن يصمدوا لكل ما يمكن أن يعترضهم من عقبات نقول :

ان هؤلاء المكيين : يجب أن يصفوا تصفية تامة كاملة . ومن وسائل هذه التصفية : اذاعة نبأ الاسراء والمعراج ، لينتكس من ينتكس ، وليبقى من يبقى ، عن بصيرة وبينة ، وعن ايمان لا يتزعزع مهما كانت الحوادث ، ايمان بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما يأتي به ، بصدقه بمجرد انبائه .

والمثل الأعلى في كل ذلك : انما هو سيدنا ابو بكر ، حينما يعلن في غير تردد ولا فتور :

« لئن كان قاله : فلقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله انه ليخبرني ان الخبر ليأتيه من السماء الى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه فهذا أبعد مما تمعجون به » .

هذا الايمان المطلق بالرسول هو الذي جعله صلوات الله وسلامه عليه يطلق على ابي بكر رضوان الله عليه « الصديق » ، « الصديقية » مرتبة من مراتب الايمان لا ينالها الا من جاهد نفسه جهادا تخطى به ايمان العامة وسما في ايمانه درجة درجة الى أن أصبح قائما بالله متجها اليه . عاملا على مرضاته في جميع ما يأتي وما يدع .

والامة الاسلامية باكملها : مطلوب منها بالنسبة الى
 اخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكون على غرار
 الصديق رضوان الله عليه تلقى بقيادها الى اخباره ،
 وتسلم نفسها الى انبائه ، مصدقة تصديقا كاملا :
 تصديقا يحملها على العمل وعلى اتباع كل ما جاء به ،
 وعلى الانتهاء عن كل ما نهى عنه تصديقا ايجابيا يحقق
 للامة الاسلامية المجد الذى ترجو ، تصديقا ينل من
 وجودها هؤلاء الذين انصرفوا مع المنحرفين ، واستجابوا
 لنداء اعداء الاسلام . فآخذوا يشككون الناس فى اقوال
 الرسول صلى الله عليه وسلم : فى احاديثه ، وفى سنته
 زاعمين أنهم من الجدد ، وما هم فى الواقع الا ابواق
 من ابواق المستشرقين والمبشرين .

ان هذه الاقلام التى تشكك فى السنة وفى الاحاديث
 النبوية : ليست الا اقلاما مقلدة للمستشرقين لا تحمل
 طابع الاصالة ، ولا طابع التجديد ، انما تحمل طابع
 التقليد وطابع الشك والتردد الذى يتناقى مع الايمان ،
 ويتناقى مع الصديقية .

٤ - اما ثمرة الاسراء والمعراج ، واما هدية الاسراء
 والمعراج واما اعظم المنح الالهية فى الاسراء والمعراج ،
 اعظمها على الإطلاق .

اما النعمة العظمى : والتجلى الالهى الاكبر فى الاسراء
 والمعراج فانه ، الصلاة .

ولا يتأتى لنا - عجزا وقصورا - أن نتحدث عن
 الحمد ، وعن الشكر على هذه النعمة التى أنعم الله بها
 على الامة الاسلامية فى هذه الليلة المباركة .

فبالصلاة هى : الصلاة به سبحانه ، وهى الكيفية ، وهى

الطريقة ، وهى الوسيلة ، وهى اللحظات الجليلة التى تتم فيها الصلة وتحقق .

انها فترة مناجاة ، فترة انقطاع كامل - ويجب أن يكون كاملاً - عن عالم المادة ، وعن عالم الشهوات ، عالم الفتنة . لتخلص النفس الى المنعم حتى تنعم فى رحابه بسعادة الصلة به والقرب منه .

ومن اقام الصلاة فقد اقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، ان اقامة الصلاة أو اقامة الدين انما هى : اقامة الصلة بالله ، وتحقيق ذلك . هو المثل الأعلى ، والغاية العظمى ، والسعادة التى يجرى وراءها المؤمنون ليحققوا بها معراجهم نحو الله تعالى ، وما من شك فى أن الصلاة - يقيمها الإنسان ، كما أراد الله ورسوله - من أنجم الوسائل فى القرب من الله ، انها : البراق الذى يحتاز به المؤمن - فى سرعة سريعة - طبقات البعد عن الله سبحانه ، ليصل اليه تعالى فينعم فى رحابه .

هذه الزوايا ، وغيرها : من عبر الاسراء ، والمعراج ، ومن توجيهات الله فيهما . هى التى يجب أن ننتبه اليها ، وأن نأخذ فى تأملها والانسجام معها .

ان الله سبحانه وتعالى : اخذ يتحدث فى سورة النجم عن آفاق عليا ، وعن اجواء الالهة جليلة ، وعن مشارف من السمو ترتد عنها الامانى حصى ذاهلة ، لقد أخذ سبحانه يتحدث عن سدرة المنتهى ، وعن الجنة الماوى ، وعن آياته سبحانه الكبرى ، لقد أخذ سبحانه يتحدث عن :

رتب تسقط الامانى حصى دونها ما وراءهن وراء
ثم ... ثم هوى بنا سبحانه ، فى عنف عنيف ، هوى

بنا في سرعة سريعة دون سابق انذار ليفتح أعيننا على
مهازل ومهاوى من الشرك ، يضل فيها هؤلاء الذين هم
كالانعام أو أضل سبيلا فقال سبحانه بعد أن ذكر هذه
التجليات الالهية :

«أقرأتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى؟» (١) .

لقد أرانا سبحانه : بهذه الكلمات : البشرية المسكينة
فى ضلالها الدينى وفى انحرافها الذهنى .

أن كل من يترك هذه الآفاق العليا ، ويتجاوزها ليتحدث
عن : أن الرسول صلى الله عليه وسلم أسرى بجسمه
وبروحه ، أو بروحه فقط ، أو أسرى به بقطة أو مناما :
انما هو بذلك ينحدر بنفسه مختارا من التجلى الالهى ،
ليهوئ بها منتكسا الى جو اللات والعزى ، وينحدر بها
منتكسا من جو سدرة المنتهى ، الى الجو المادى : ومن
مجالات النور السماوى المألئ الى ظلمة الجدل وزيف
المماراة فى الدين .

فلنصرف عنه ، ولنتركه وما اختار ، مبتعدين من
الجدل مع الممارين ، ولندع الله قائلين :

« ربنا لا تزغ قلوبنا ، بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من
لدنك رحمة ، أنك أنت الوهاب » (٢) .

الهجرة

بالجلال الايمان وثباته وقوته ا .
ان التاريخ : نادرا ما يحدثنا عن هجرة خالصة مخلصة ، لله ولرسوله ، هجرة الى مكان مجهول ، هجرة لا يسأل المهاجر عما اذا كان مهجره سيستقبله مرحبا ويؤويه فى الفة ، أم أنه سيقبله بالجفوة والعداوة . هجرة لم يمهّد لها الجو من قبل ، ولم يعبد لها المكان .
ان التاريخ : لا يكاد يحدثنا عن الهجرة بالايمان ومن اجل الايمان .

ولكن التاريخ الاسلامى حافل بهذه الانواع من الهجرة ، فانه لما كثر المسلمون بمكة وظهر الايمان ، وكثر الحديث عنه ، ثار ناس كثيرون من المشركين من كفار قريش ، بمن آمن من قبائلهم فعذبوهم ، وسجنوهم ، وارادوا فتنهم عن دينهم ، وتحمل المؤمنون العذاب الوانا فى سبيل الله . ولما استمر الامر دون فتور ، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شفقة عليهم ورحمة ! .
« تفرقوا فى الارض » .
فقالوا : اين نذهب يا رسول الله ؟ .
فأشار اليهم ، الى الحبشة ، فهاجر اليها فى بادئ

الأمر طائفة من المسلمين ، منهم من هاجر مع أهله ، ومنهم من هاجر منفردا .

وأخذوا يعبدون الله مطمئنين آمنين على دينهم من الفتنة .

ثم قدم بعضهم الى مكة معتقدا ان الأمور قد هدأت ، فيما بين رسول الله والمشركين ، فلما قدموا الى مكة اشتد عليهم قومهم ، وسطت بهم عشائره ، ولقوا منهم أذى شديدا .

فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالخروج الى أرض الحبشة مرة ثانية ، فكانت هجرتهم الثانية أعظمها مشقة ، ولقوا من قريش تعنيفا شديدا ، ونالوهم بالأذى ، وقال سيدنا عثمان رضى الله عنه ، مخاطبا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة الى النجاشي ولست معنا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الكلمة المؤثرة :

« أنتم مهاجرون الى الله وإلى ، لكم هاتان الهجرتان جميعا » .

قال سيدنا عثمان : « حسبنا يا رسول الله » .

وكان عدد هؤلاء المهاجرين من الرجال ثلاثة وثمانين رجلا ، وكان عدد النساء ثمانى عشر امرأة .

ولم يرق لقريش ان يعبد الله هؤلاء القسوم آمنين مطمئنين ، لم يرقها أنهم تخلصوا من التعذيب والفتنة ، فأرسلت وفدا من ساسة العرب الدهاة ، مزودا بالهدايا

الى النجاشي ، ليعيدوا هؤلاء الموحدين الى مكة ، لينزلوا عليهم العذاب من جديد .

« ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين » (١) .

ولم يفلح الوفد وعاد الى مكة بخفي حنين .

ولما علمت قريش بذلك ، ثارت ثائرتها ، وزاد غضبها ، واقدمت على عمل يتنافى تنافيا تاما مع الانسانية ، فقد كتبوا كتابا تعساهدوا فيه على الا يناكحوا بنى هاشم ولا يبايعوهم ، ولا يخالطوهم ، وكان الكاتب للصحيفة هو ، منصور بن عكرمة العبدري ، وكان من تقدير الله تعالى ان شلت يده .

وبهذه الصحيفة ، وهذا العهد حصروا بنى هاشم في شعب ابي طالب .

وكان ذلك في اول المحرم سنة سبع من نبوته صلوات الله وسلامه عليه ، واستمر بنو هاشم منعزلين محصورين ، لا يخرجون الا من موسم ، الى موسم حتى بلغ بهم الجهد مبلغا خطيرا ، وكانت قريش تسمع اصوات صبيانهم يبكون جوعا ومسبقة فلا ترق قلوبهم ولا يتسائرون ، واستمر ذلك سنوات ثلاث .

وبينما هذه الامور ، من الشدة والنسوة ، تجري تحت سمع الرسول وبصره ، وكانت قريش ترسل له صلوات الله عليه من يعرض عليه المال والغنى والسلطان والجاه والملاذ بجميع ألوانها ، على أن يترك دعوته ، فلا يجدون الى غايتهم سبيلا .

وما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة قط ،

كان يدعو ليلا ، وكان يدعو نهارا ، وكان يدعو فى كل لحظة من لحظاته ، يروى الامام أحمد عن ربيعة بن عباد ، وكان جاهليا أسلم يقول :

رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ببصر عيني بسوق ذى المجاز يقول : « يا أيها الناس ، قولوا لا اله الا الله تفلحوا » ، ويدخل فجاجها والناس منقصفون (١) عليه ، فما رأيت أحدا يقول شيئا ، وهو لا يسكت يقول : « يا أيها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا » .

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاث سنين ، من أول نبوته مستخفيا ثم أعلن فى الرابعة ، فأخذ يدعو الناس الى الاسلام ، عشر سنين ، يوافى المواسم كل عام ، يتبع الحاج فى منازلهم فى المواسم بعكاظ ومجنة ، وذى المجاز يدعوهم الى أن يمنعوه ، حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة ، فلا يجد قبيلة تنصره أو تحجبه ، حتى انه ليسأل على القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول :

« يا أيها الناس قولوا : لا اله الا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب ، وتدل لكم العجم ، واذا آمنتم كنتم ملوكا فى الجنة » .

واستمر الأمر كذلك : لا يكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعوة الى الله ، ولا يكف المشركون عن المعارضة والايذاء حتى كانت السنة الحادية عشرة من نبوته صلوات الله وسلامه عليه ، وكان الاسراء والمعراج وأرتد من أرتد وثبت من ثبت وكان حادث الاسراء والمعراج هو حادث التصفية الكاملة ، وكان الفيصل بين طائفتين : طائفة مؤمنة ، ثابتة على إيمانها ، لا تزعرها الأعاصير ،

(١) يجتمعون ويزدحمون •

تميد الجبال ولا تفيد ، وطائفة مشركة ، قد أحكمت أمرها ، ورتبت شئونها ، وجزمت العزم على أن تقضى على الاسلام مهما طال الزمن .

ولم يكد يعتنق الاسلام في هذه الفترة - فترة السنوات الثلاث التي سبقت الهجرة - مشرك من أهل مكة ، وفيها ثبت المسلمون على ايمانهم تبات اولى العزم ، كانت هذه الفترة فترة تربية للمؤمنين وصقل لهم ، وهى وان كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه : لم يكف فيها عن الدعوة لحظة من اللحظات ، فانها مع ذلك : كانت تربية قرآنية لرجال يؤهلهم الله ورسوله لحمل راية الاسلام ونشر دعوته :

واذا كانت المعسكرات قد تحددت في مكة ، كانت الفترة من الاسراء الى هجرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه : كانت فترة تربية وصقل وتعليم وتهذيب فان الاسلام في هذه الفترة . لم يكن قد وقف راكدا ، بل بالعكس قد هيا الله له وسيلة الانتشار خارج مكة ، لقد ضم الرسول في معسكره المسكى كل عناصر الخير بمكة ولم يبق فيها - في الطرف المقابل - الا من لا ينحسم أمره عن طريق الدعوة وانما عن طريق آخر . وما كان هناك من مناص من مفادرة مكة للعودة اليها من جديد في ظروف مهياة ، وبوسائل غلبة ، لقد هيا الله الأمر لانتشار الاسلام خارج مكة .

ويقول ابن سعد في الطبقات :

« اقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ما اقام ، يدعو القبائل الى الله ، ويعرض نفسه عليهم كل سنة بمجنة ، وعكاظ ، ومنى ، ان يأووه حتى يبلغ رسالة ربه ، ولهم الجنة ، فلم تستجب له قبيلة من العرب ، ويؤذى

ويشتم ، حتى أراد الله اظهار دينه ونصر نبيه وأنجسنا
ما وعد فساقه الى هذا الحى من الأنصار لما أراد الله بهم
من الكرامة .

وكانوا ستة نفر ، فدعاهم اليه ، وعرض عليهم الاسلام ،
وتلا عليهم القرآن ، فأسلموا ، ووعدوه أن يلتقوا به فى
العام القادم .

ولما عادوا الى المدينة ، بشروا بالاسلام فى قومهم فأسلم
من أسلم وكثر فى المدينة الحديث عن الاسلام .

فلما كان العام الذى يليه حضر اثنا عشر رجلا ، فبايعوا
الرسول — كما تحدثوا بذلك عن أنفسهم — : « على ألا
نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ،
ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى
معروف » .

قال : « فان وفيتم فلکم الجنة ، ومن غشى من ذلك
شيئا كان امره الى الله : ان شاء عذبه ، وان شاء عفا
عنه » .

ان هذه البيعة بيعة فضيلة وخير ، انها بيعة على العمل
بالمثل الاخلاقية العليا ونشرها .

وانظر الى الدقة فى قوله ولا نعصيه فى معروف . انه
لم يقل : ولا نعصيه ويسكت ، وانما قيد ذلك بقوله :
« فى معروف » وحاول أن تتأمل وثيقة البيعة هذه ،
فستقر — لا مناص — بأنها وثيقة الهية .

وعاد المسلمون الى المدينة بأخلاق أخرى ، ووجوه عليها
نور الاسلام وبقلوب انغمست فى محيط الرحمة ، واخذوا
يدعون الى الله مبشرين ومنذرين .

ثم عادوا في العام التالي وهم سبعون أو يزيدون رجلا
أو رجلين ومعهم امرأتان والتقوا برسول الله صلوات الله
وسلامه عليه ، ومعه العباس بن عبد المطلب ، ليس معه
أحد غيره .

قال أسعد بن زرارة : فكان أول من تكلم العباس بن
عبد المطلب فقال : يا معشر الخزرج انكم قد دعوتكم محمدا
إلى ما دعوتموه إليه ، ومحمد من أعز الناس في عشيرته ،
يمنعه والله منا من كان على قوله ، ومن لم يكن منا على
قوله ، يمنعه للحسب والشرف ، وقد أبى محمد الناس
كلهم غيركم فان كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب
واستقلال بعداوة العرب قاطبة ، ترميكم عن قوس واحدة ،
فارتأوا رأيكم ، وأتمروا أمركم ، ولا تفترقوا إلا عن ملا
منكم واجتماع ، فان أحسن الحديث الصدقة .

فقال البراء بن معرور : قد سمعنا ما قلت ، وأنا والله
لو كان في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء
والصديق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله صلى الله
عليه وسلم .

وقال : وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم
القرآن ، ثم دعاهم إلى الله ورغبهم في الإسلام وذكر الذي
اجتمعوا له .

فأجابه البراء بن معرور بالإيمان والتصديق ، ثم قال :
يا رسول الله : بايعنا فنحن أهل الحلقة (١) ورثناها كابر
عن كابر .

فقال العباس بن عبد المطلب وهو أخذ بيد رسول الله
صلى الله عليه وسلم : أخفوا حرسكم (٢) ، فان علينا عيونا

(١) أصل السلاح

(٢) كلامكم وصوتكم

وقدموا ذوى أسنانكم ، فيكونوا هم الدين يلون كلامنا منكم ، فانا نخاف قومكم عليكم ، ثم اذا بايعتم فتفرقوا الى محالكم .

فتكلم البراء بن معرور ، فأجاب العباس بن عبد المطلب ، ثم قال : أبسط يدك يا رسول الله .

فكان أول من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقال - : البراء بن معرور .

ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان موسى أخذ من بنى اسرائيل اثني عشر نقيبا ، فلا يجدن احد منكم فى نفسه ان يؤخذ غيره ، فانما يختار لى جبريل » .

فلما تخيرهم قال للنقباء : انتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى مريم ، وانا كفيل على قومي » .
قالوا : نعم ...

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انفضوا الى رحالكم » .

فقال العباس بن عباد بن نضلة يا رسول الله : والذي بعثك بالحق لئن أحبيت لتميلن على أهل منى بأسيا فانا ، وما أحد عليه سيف تلك الليلة غيره .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انا لم تؤمر بذلك فانفضوا الى رحالكم .

ولما صدر السبعون من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم طابت نفسه ، وقد جعل الله له منعة وقوما ، أهل حرب وعدة ونجدة .

وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين ، فلما

ضاقت بالأمور ذرعا ، شكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستأذنوه فى الهجرة ، فقال لهم : « قد أخبرت بدار هجرتكم ، وهى : « يثرب » فمن أراد الخروج فليخرج اليها .

واخذ المسلمون يهاجرون سرا ، بادية عليهم آثار تربية الرسول صلى الله عليه وسلم من الثقة بالله ، والصبر ، وتحمل المشاق فى سبيل دينهم ، وتوطين النفس على أن يكونوا فى جميع أحوالهم ، من جنود الله ، مهاجرين اليه للعمل على إعلاء كلمته ، ونشر دينه ، ولو كره الكافرون .

وما كانت الهجرة قط فى نظر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا فى نظر أصحابه ركونا الى الدعة والهدوء ، أو ميلا الى الراحة والسكون .

وانما كانت ، محاولة مصممة على قيادة المعركة فى سبيل الله من جبهة أخرى .

وأخذ المسلمون يهاجرون الى الله ورسوله ، يهاجرون سرا ، جماعات أو فرادى ، حتى لم يبق بمكة الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وعلى رضى الله عنهما ، أو مريض ، أو عاجز عن الخروج .

وعندئذ آن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهاجر . ها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مشارف مكة ، ينظر اليها على أمل واثق من أنه سيعود اليها مبشرا بدين الله عاملا أن يعم كل بيت فيها .

ولما أوشكت أن تغيب عن بصره ، ودعها بهذه الكلمات المؤثرة :

« والله انك لأحب البلاد الى نفسى ، ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت » .

ثم مضى هو والصديق الى غار ثور فدخلاه ، ولما علم
المشركون بالامر ، ثارت ثائرتهم ، ووطنوا العزم على الا
يغلبت المهاجران الى الله من تنكيلهم .

لقد كانوا قد دبروا قتل الرسول الله صلى الله عليه
وسلم وما كانوا يبالون قط بقتل رجل ان يقول ربى الله .

ولقد كانوا أحكموا التدبير لقتله قبل ان يخرج ،
ووضع مشروع المؤامرة أبو جهل - عليه لعنة الله -
وعرضها على الوضع التالى :

أرى ان نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاما ، نهذا ،
جلدا ، ثم نعطيه سيفا صارما ، فيضربوه ضربة رجل
واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يستطيع بنو عبد
مناف الوقوف فى وجه القبائل جميعها ، فيقبلوا الدية
فنعطيهما اياها .

« ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » (١) .

دخل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه هو وأبو بكر
الغار مختفين ، وكان سيدنا أبو بكر حزيناً ، خوفاً على
الرسول صلوات الله وسلامه عليه فجاء النداء الإلهى على
لسان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يعلؤه ثقة
وتفاؤلاً :

« لا تحزن ان الله معنا » (١) .

ولما سمع سيدنا أبو بكر خنق نعال المشركين أمام الغار
وأصواتهم الصاخبة التى تعلن عن سخطهم وغيظهم
المكبوت قال : لو نظر أحدهم الى موضع قدميه لأبصرنا ،
ويبتسم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ويقول :

(١) التوبة : ٤

(١) آل عمران : ٥٤

« ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ؟ .

ولما انتهى الطلب وعاد المشركون من حيث أتوا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ورفيقه وكان خروجهما من الفار ليلة الاثنين لأربع ليالى خلون من شهر ربيع الأول .

وبينما هما فى الطريق لحق بهما سراقة بن مالك مدججا بالسلاح على فرس تسابق الريح ، لياسرهم حتى يفوز بالجائزة التى وعد بها المشركون من يأتى بالرسول صلى الله عليه وسلم قتيلا أو أسيرا .

فلما دنا منهما دعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسخت قوائمه فرسه فقال يا محمد : ادع الله أن يطلق فرسى وأرجع عنك وأرد من ورائى ففعل فاطلق ورجع فوجد الناس يتلمسون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أرجعوا فقد استبرأت لكم ما ها هنا وقد عرفتم بصرى بالأنثر فرجعوا عنه .

وسار الركب تحفه رعاية الله وعنايته ، حتى وصل الى المدينة ، حيث استقبل بـ :

طلع البدر علينا

من ثنيتات الوداع

وجب الشكر علينا

ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا

جئت بالأمر المطاع

وكان من أوائل الأعمال التى قام بها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى المدينة :

- ١ - بناء المسجد : المسجد الذي أسس على التقوى
من أول يوم .
- ٢ - المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، تحقيقا لمبدأ من
الدين الاسلامي ، يتمثل في قوله تعالى : « انما المؤمنون
اخوة » (١) .

ويح قوم جفوا نبيا بارض
الفتنه ضابها والطباء
وسلوه وحن جذع اليه
وقلوه ووده الفـرباء
أخرجوه منها وآواه غار
وحمته حمامة ورقاء
وكفته بنسجها عنكبوت
ما كفته الحمامة الحصداء
واختفى منهم على قرب مرآ
ه ومن شدة الظهور الخفاء
ونحا المصطفى المدينة واشتا
قت اليه من مكة الانحاء

مستخفيا في جنح من الليل مفارقا البلدة التي ولد بها .
والتي بها عشيرته وقومه الى بلدة يجد فيها حرية
الدعوة الى الله .

يصور الله ذلك بأنه انتصار ، ومن الطريف ان الله
تعالى ، يصوره بأنه انتصار في الوقت الذي كان فيه
الرسول صلوات الله وسلامه عليه مختبئا في الفار هو
والصديق رضوان الله عليهما ، والمشركون بخيلهم ورجلهم
وعدتهم وعنادهم منتشرون في كل مكان يبحثون عنهما
جاهدين للتكيل بهما .

وما من شك في ان الهجرة كانت انتصارا مبينا : لانها
فرار الى الله ، والفرار الى الله انتصار ، حتى ولو انتهى
بالموت أو القتل :

« والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ،
ليرزقنهم الله رزقا حسنا ، وأن الله لهو خير الرازقين » (١) .
ونحن مأمورون بالفرار الى الله ، أي بالهجرة اليه :
« ففروا الى الله ، اني لكم نذير مبين (٢) ، وسيدنا
ابراهيم عليه السلام قال : « اني مهاجر الى ربي انه هو
المزير الحكيم » (٣) .

« وقال اني ذاهب الى ربي سيهدين » (٤) .
والفرار الى الله ، والهجرة اليه ، والذهاب اليه ، من
صفات المؤمنين الصادقين : انهم يفرون الى الله ويهاجرون
اليه يوميا : فهو هدفهم وغايتهم في جميع أعمالهم ، وإذا
كانت هجرة بعض الناس انما هي الى دنيا يصيبها ، أو
الى امرأة ينكحها ، فهجرة المؤمن الصادق خالصة لله
وحده ، متمحضة لوجهه الكريم ، وإذا ما كانت كذلك كان

(٢) الداريات : ٥٠

(٤) الصافات : ٩٩

(١) الحج : ٥٨

(٣) المكنوت : ٢٦

الهجرة من زاوية أخرى

الهجرة حقيقة تاريخية ، ورمز روحى جميل ، يعبر خير تعبير عما يجب أن يكون عليه المسلم فى كل فترة من فترات حياته ، بل فى نفس من أنفاسه ، ونريد أن نتحدث الآن عن الهجرة كرمز من الهجرة الروحية ، عن الهجرة التى لا ترتبط بزمان ولا بمكان ، والهجرة بهذا المعنى يتجاوز الواقع التاريخى ويتجاوز الزمان والمكان ، قد وردت فى الأحاديث النبوية الشريفة ، وفى القرآن الكريم .

يقول رسول الله صلوات الله عليه ، فيما رواه البخارى رضى الله عنه : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » . هذا المعنى الروحى نتبينه فى وضوح سافر فيما يلى :

يقول الله تعالى :

« ألا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الفار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » (١) .

فى هذه الآية الكريمة : يصور الله تعالى ، اخراج الكفار للرسول صلوات الله وسلامه عليه من مكة ، وهجرته

(١) التوبة : ٤٠

الله معه ، يقول صلوات الله وسلامه عليه للصديق :
 « لا تحزن ان الله معنا » ذلك أن هجرتهما كانت لله رب
 العالمين ، لا شريك له ومن كان كذلك فإن الله ينزل عليه
 السكينة ، أى طمانينة النفس والرضا ويؤيده بعنود
 لا تراها الأعين : فيدخله فى نطاق رعايته ، ويشمله
 بجميل عنايته ، ويضفى عليه من توفيقه ورضاه ما يجعله
 قرين النفس ، هادى البال سعيدا ولو القى فى النار
 لأنه سوف لا يشعر بها الا بردا وسلاما .

وقد نظم الله للمؤمنين أمر الهجرة اليه تعالى .

وأول مرحلة فى سبيل الهجرة اليه سبحانه انما هي
 النية الخالصة لوجه الكريم ، يقول صلوات الله وسلامه عليه:
 « انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرئ ما نوى :
 فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله
 ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة
 ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » .

فاذا ما توجهت النية بالأعمال الى الله تعالى كانت
 الأعمال هجرة اليه ، أما اذا لم تتوجه النية اليه ، فان
 الأعمال - ولو كانت خيرا فى ظاهرها - تكون هباء منثورا .

ومن هنا يتبين للمؤمنين حقا فساد الأفكار التى يروجها
 الحائدون عن النهج الدينى الصحيح من أمثال قولهم :
 ان العلم للعلم ، أو الفن للفن ، أو الخير للخير أو الخير
 لأرضاء الضمير ان كان ذلك يدل على عدم الفهم السليم
 للروح الدينية الصحيحة ، وهو أيضا خطر على المجتمع ،
 لأن العلم والفن اذا لم يتجه بهما أصحابهما الى الله -
 أسسا وغايات - انحرفت بهما الارادات والنيات الى الشر
 والافساد : فشقيقت بهما الإنسانية بدل أن تسعد .

أما الخير فإن معرفته معرفة حقيقية لا يتأتى إلا عن طريق الدين وقد حاولت العقول - مستقلة عن الدين - تحديده فتعارضت وتضاربت ولم تصل الى نتائج .
والمؤمن اذن يهاجر الى الله بعلمه ، ويهاجر اليه بفنه ، ويهاجر اليه بعمله الخير .

على أن العبادات الإسلامية على تعددها واختلافها ، وانما هي تنسيق وتنظيم لأنواع وألوان من الهجرة الى الله تسمو بالمؤمن صعودا الى الصلوة بالله ، وإلى النعيم في رضوانه ، وإلى السعادة في رحابه ، فالصلاة فرار من البيئة والجو والمادة الى الوقوف بين يدي الله ومناجاته لحظة من الزمن - فهي هجرة الى الله .
والزكاة انفصال عن جزء من المادة تقربا الى الله فهي ذهاب اليه .

والصوم ابتعاد عن المادة فترة من الزمن ، تركية للنفس وقربى الى الله فهو ذهاب اليه .
أما مناسك الحج فانها صور من التجسرد لله بلفت الذروة والسنام ، وتبلورت في النداء الروحي الكريم :
« لبيك اللهم لبيك » .

وختاما : فإن الصورة التامة الكاملة للهجرة الإسلامية الكبرى انما تتمثل في أروع مظاهرها في قوله تعالى :
« قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

يقول صلوات الله وسلامه عليه : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » جاد في كل ميادين الجهاد ، ونية خالصة طاهرة متمحضة لله ورسوله .
فالى هذه الهجرة الكبرى ايها الاخوة المؤمنون فان فيها الخير كله .

الجهاد

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه والذى كان فى كثير من الأحيان يواصل فى الصيام ، هو الذى يقول : « والذى نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » .

وهو القائل : « من مات ولم يغزو ، ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق » .

ان النبى العابد هو : النبى المكافح : وان نبى الرحمة : هو نبى الجهاد ، وما كان الجهاد قط فى الاسلام ، الا فى سبيل الله ، فاذا ما خرج عن سبيل الله : لم يكن اسلاميا ، وكل ما فى سبيل الله : انما هو رحمة .

وليس من شأننا ، أن نتحدث عن الغزوات سردا وترتيبا وتفصيلا ، وانما نذكر منها عبرا ، حتى ننتهى الى فتح مكة :

واول ملاحظة : هى ان الرسول العابد صلى الله عليه وسلم : لم يتراجع فى غزوة قط ، وكان الأبطال يتراجعون ، والصناديد من المهاجرين والأنصار يفرون أحيانا ، ولكنه صلوات الله وسلامه عليه يثبت ثبات الجبال الراسيات : لا يتزعزع عن موقفه ، ولا يزول عن مكانه ، وقد ثبت فى

مكانه في غزوة أحد التي غلب فيها المسلمون ، وكان
المشركون فيها يودون بكل ما استطاعوا أن يقضوا عليه
صلوات الله وسلامه عليه .

ووقف ثابتاً في غزوة حنين ، وقد فر المسلمون ، على
كثرتهم اذ ذاك ، وكيف يمكن لأكمل رجل في الوجود أن
يفر وأن يتراجع وهو أوثق الناس بالله وبرسالته ؟ .
ولقد كان واضحاً فيه صلوات الله وسلامه عليه مايقوله
سيدنا علي وهو من هو - بطولة وفروسية - : « كنا
إذا حمى الوطيس أي الحرب : اتقينا برسول الله صلى
الله عليه وسلم أي احتمينا به وفيه ، فيكون أقربنا إلى
العدو » .

وكان صلوات الله وسلامه عليه مع التجائه إلى الله
تعالى . يدعوهُ ويستغيث به ، ويستنجزه بالنصر : يحكم
الأمر احكاماً ، بحيث لا يدع فيه ثغرة : هكذا كان أمره
في جميع أموره ، لقد نظم الجيش في غزوة بدر تنظيمًا
محكمًا ثم اتجه إلى الله يدعوهُ ، وكان دائماً متفائلاً ، كان
متفائلاً حتى ولو كان العدو عشرة أمثال المسلمين .

لقد كان المشركون في غزوة بدر : ثلاثة أمثال
المسلمين ، فهزمهم المسلمون باذن الله .

وكان انهزام المسلمين في غزوة أحد : شذوذاً في
القاعدة ، وما كان ذلك إلا لأنهم خالفوا - متاولين - أوامر
الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير أن تفاؤله صلوات الله
عليه وسلامه : لم يفارقه لحظة ، اذ أنه بعد أن انهزم
المسلمون في غزوة أحد مباشرة ، أمرهم صلوات الله
وسلامه عليه ، بلم شعثهم وتضميد جراحهم ، والاستعداد
فوراً ، لخوض المعركة من جديد .

ومن مظاهر تفاؤله صلوات الله وسلامه عليه ، أنه في غزوة الأحزاب ، وقد تجمع الشرك من جميع أرجاء الجزيرة ، يسانده اليهود والغادرون ليقضوا على الاسلام في المدينة ، ليقضوا عليه دينا ، وليقضوا عليه دولة ، ليقضوا عليه عقيدة ، وليقضوا عليه رجالا . وقد كان المسلمون : يعملون في حفر الخنادق حماية لهم ، ومنعاً من وصول العدو اليهم في هذه اللحظة الحرجة : يروى البراء بن عازب رضى الله عنه : القصة التالية ، حسبما رواه الامام أحمد :

« أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق ، فعرضت لنا صخرة في مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول فشكونا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء ثم هبط الى الصخرة . فأخذ المعول وقال : بسم الله ، ف ضرب ضربة فكسر ثلث الحجر وقال : الله اكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله انى لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا ، ثم قال بسم الله ، وضرب أخرى ، فكسر ثلث الحجر ، فقال : الله اكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله انى لأبصر المدائن ، وأبصر قصرها الابيض من مكاني هذا ثم قال : بسم الله وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر ، فقال : الله اكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله انى لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا . »

وأشاع هذا التفاؤل : الثقة والاطمئنان في المسلمين وان كان قد دعا الى السـخـرية في وسط المشركين والوثنيين الذين قالوا : ان محمدا يعدم ويمنيهم وهم لا يأمنون على أنفسهم الآن .

هذا التفاؤل وهذه الثقة في الله لم تفارق الرسول قط

فى كفاحه الطويل الدائب الذى استمر الى نهاية حياته الشريفة .

وغزوة فتح مكة ترتبط بآيات مباركات هى :

بسم الله الرحمن الرحيم ، « انا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا » (١) .

ان آيات الفتح هذه — نزلت فى اثناء عودة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة بعد صلح الحديبية ، نزلت تسليية للمسلمين ، وقد حزنوا لصدهم عن دخول مكة تشير الى فتح مكة وتبشر به ، ولقد أوحاها الله الى رسوله ليلا ، فلمّا أصبح صلوات الله وسلامه عليه قال : حاجين معتمرين ، مع انهم كانوا على أبوابها ، ولقد نزلت على الليلة سورة : هى أحب الى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ قوله تعالى :

« انا فتحنا لك فتحا مبينا » .

وهذه الايات الكريمة : لا تكاد تبين عن فتح مady حربى وانما هى تشير — على الخصوص — الى الافاق العليا من الرضوان الالهى . انها وثيقة تسجل الثقة المطلقة التى شملت الماضى ، والحاضر والمستقبل ، والتى سمّت بالرسول صلوات الله وسلامه عليه الى مستوى الرضا عن كل ما يأتى وما يدع .

انها بشرى من الله بفتح مبين وغفران شامل واتمام كامل للنعمة ، وهداية وقيادة دائمة مستمرة ونصر عزيز : وهذه منح الهية عامة ، لا تفسر بالماديات وحسب ، وانما

(١) الفتح : ١ ، ٢ ، ٣

تفسر أيضا ، ومن باب أولى ، بالمعاني الروحية فى أسمى صور التجليات الالهية - اللهم لك الحمد والشكر - ولذلك فاننا حينما نتحدث عن فتح مكة ، لا تحتل المسائل الحربية المكانة الأولى من الموضوع ، وانما الذى يحتل ذلك انما هو المثل العليا : من الصور الأخلاقية النبوية ، والسمو النفسانى ، الممثل فى الرحمة المهداة من الله تعالى الى الإنسانية : أى فى سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

ومهما يكن من شيء ، فان قريشا ، نقضت عهد الحديبية ، الذى كان يفرض الهدنة بينها وبين رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وكانت الفرصة مواتية لأن يركز الله تفكير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر قريش :

أما أن لقريش ، أن تسلم وجهها لله ، وأن توحده ولا تشرك به شيئا ؟ .

« أن الشرك لظلم عظيم » .

أما أن لقلوبهم أن تخشع لذكر الله وما نزل من الحق ؟ .
لقد دعا سيدنا ابراهيم - فى رحاب مكة - ربه مبتهلا ضارعا قائلا :

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلوا عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم ، أنك أنت العزيز الحكيم » (١) .

وها هو ذا الرسول صلى الله عليه وسلم قد بعثه الله اليهم بالهدى السماوى ، فهل استجابت قريش لهدى السماء ؟ .

(١) البقرة : ١٢٩

وهذا البيت العتيق ، الذى رفع قواعده إبراهيم واسماعيل قائلين :

« ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم » (١) .

هذا البيت الذى عهد الله لابراهيم واسماعيل ، ان يطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود .

هذا البيت : قد احتلته الاصنام ، والتفت حوله ، وارتفعت على جوانبه معلنة - فى وقاحة سافرة - الشرك بالله .

لا بد من تحطيم الاصنام ، وتطهير البيت ، لا بد من ان تسلم قريش وجهها الى الله .

وصمم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عزم لا يلين ، على ان يمحو الشرك وآثاره من معقله الحصين : - اعنى مكة - وان يطهر البيت من جديد للطائفين ، والعاكفين ، والركع السجود ، وعبثا حاول أبو سفيان الذى أرسلته قريش سفيراً بينها وبين الرسول - ان يجدد العهد الذى نقضته قريش ، ولم يجد أبو سفيان - رغم دهائه ولباقته - عوناً من أحد ، حتى ولا من ابنته أم حبيبة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، التى بلغ بها النفور من الشرك ، ان طوت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لا يجلس عليه أبوها - زعيم المشركين وحامى الشرك فى مكة - فلما سألها مستفسراً أرغبت به عن الفراش أم أرغبت بالفراش عنه ، قالت : هو فراش رسول الله ، وأنت مشرك نجس ، فانصرف مفضباً قائلاً : « والله لقد أصابك من بعدى شر » ، وخطأ أبو سفيان فما أصابها شر ، ولكنها كراهية الشرك .

(١) البقرة : ١٢٧

وهيا رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - القوي
 وخرج يوم الأربعاء بعد العصر لعشر ليل خلون من شهر
 رمضان ، سنة ثمان من الهجرة ، حتى اذا كان بالكديد ،
 واجتمع الناس اليه : اخذ اناء فشرب منه ثم قال : « ايها
 الناس من قبل الرخصة ، فان رسول الله صلى الله عليه
 وسلم قبلها ، ومن صام فان رسول الله صلى الله عليه
 وسلم صام » (١) .

حتى اذا بلغ - صلوات الله وسلامه عليه - « مر
 الظهران » وهو مكان - بالقرب من مكة - أمر الجيش
 بالافطار لانه فيما يبدو يوشك ان يخوض المعركة الفاصلة
 بين الشرك والايمان .

وعسكر الجيش في مر الظهران ، ولما رآه أبو سفيان
 وكان قد أسلم منذ ساعات ، قال بعقليته الجاهلية
 للعباس : يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك
 عظيما ، فقال العباس ، بعقليته الإسلامية : ويحك انه
 ليس بملك ، ولكنها نبوة ، قال أبو سفيان : فنعم ، وتوجه
 رسول الله نحو مكة محذرا من اراقة الدماء ، ولما قال
 سعد بن عبادة وهو أحد قادة الجيش : « اليوم يوم المحمة ،
 اليوم نستحل الحرمة » عزله النبي صلى الله عليه وسلم
 فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يكون
 اليوم يوم الرحمة .

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة دون
 مشقة : وكان أول ما فعل أن طاف بالبيت سبعا ، ودخل
 البيت ، فرأى فيه صور الملائكة بهيئة النساء ، ورأى
 إبراهيم عليه السلام ، مصورا في يده الأزام يستقسم بها ،

(١) هذه قاعدة وضعها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
 ليقاس عليها حالة الجيش الإسلامي في حروبه أيام رمضان

نُقال : قاتلهم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ، ماشان
ابراهيم والأزلام ؟ .

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا
مسلمًا وما كان من المشركين » (١) .

وأمر بطمس الصور كلها ، واتجه الى الأصنام ،
فحطمها مرددا قوله تعالى :

« وقل جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان
زهوقا » (٢) .

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حطم
الأصنام المادية ، فإنه من قبل ذلك ومن بعد ذلك : قد
حطم كل صنم يعبد من دون الله ، وبين أن الرياء شرك ،
والهوى شرك ، والخضوع للشهوات شرك ، وكل عمل
لا يقصد الإنسان به وجه الله ، فإنما هو من أعمال
الشرك وفي هذا اليوم تملك أربحية العفو رسول الله صلى
الله عليه وسلم .

فانه ، حينما اجتمعت قريش اليه ، نظير اليهم
وقال : « يا معشر قريش ، ما ترون انى فاعل بكم ؟ » ،
فقالوا : خيرا اخ كريم ، وابن اخ كريم ، فقال وهو يبكي :
« اذهبوا فانتم الطلقاء » .

أقول لكم ما قاله أخى يوسف لآخوته :

« لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم
الراحمين » (٣) .

فكان هذا اليوم حقا يوم الرحمة .

وبالله التوفيق .

(٢) الاسراء : ٨٦

(١) آل عمران : ٦٧

(٣) يوسف : ٩٢

النبي الجليل

الف النسك والعبادة
والخلوة طفلا وهكذا النجباء
وإذا حلت الهداية قلبا
نشطت في العبادة الأعضاء

ان اول آية نزلت من القرآن الكريم انما هي :
« اقرأ باسم ربك الذي خلق » (١) ولقد كانت هذه
الآية الكريمة بوضعها ، ومفهومها وجوها - شعاعا
عاما وتوجيها شاملا ، فما كانت تعنى بروحها ، القراءة
فحسب ، وانما كانت تعنى : انه - منذ هذه اللحظة -
يجب أن يكون امر باسم الله : فعلا كان هذا الامر او تركا .
ولقد تأكد هذا الاتجاه وأصبح سافرا فيما بعد ، لقد
أصبح من الأوامر المفروضة على المسلم ، يقول الله تعالى
لرسوله صلى الله عليه وسلم :

« قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب
العالمين ، لاشريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول
المسلمين (٢) » .

على أن المسألة : أشمل من ذلك وأعم ، اذا كان يتأتى

(٢) الانعام : ١٦٢ ، ١٦٣

(١) الملق : ١

الشمول والعموم بعد هذا .

ان الله سبحانه قد أخبر في قرآنه الكريم : انه ما خلق الجن والانس الا للعبادة ، يقول سبحانه :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » (١) .

ففاية الخلق للعبادة ، وسبب الخلق للعبادة ، والثمرة التي يجب أن يعمل الانسان على تحقيقها: اذن انما هي : العبادة ، ومن هنا كانت التوجيهات المتوالية للعبادة .

« واقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل ، وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا ، ومن الليل فتعبد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ، وقل رب ادخلني مدخل صدق ، وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطان نصرا » (٢) .

« واسجد واقترب » (٣) .

« واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » (٤) .

« واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم » (٥) .

وما من شك في أن الله سبحانه لا تضره معصية . ولا تنفعه طاعة ، انه سبحانه الفنى المطلق ، والفاتح المطلق ، والمعطى المطلق ، انه سبحانه الوهاب ، الرزاق ، المغنى ، انه القائم بنفسه ، وغيره هو المحتاج .

وما كانت العبادة الا لأجل تكميل الانسان فمن فضل الله علم عباده ، أن فتح لهم باب الكمال على مصراعيه عن

(٢) الاسراء : ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠

(٤) الحجر : ٩٩

(١) الداريات : ٥٦

(٣) الملق : ١٩

(٥) الطور : ٤٨ ، ٤٩

طريق العبادة ، ففائدة العبادة راجعة الى العابد نفسه ، فضلا من الله ورحمة ، انها راجعة اليه في الدنيا ، وراجعة اليه في الآخرة ، ويشمل الوجهين قوله تعالى :

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (١) .

ومن عناية الله بالأمة الاسلامية ، وبرسوله الكريم : ان أول كلمات الوحي من الوحي : كانت توجيهها للرسول وللمسلمين ، بأن تكون أعمالهم كلها عبادة ، لأن ما كان باسم الله كان عبادة ، ولو كان أكلا أو شربا مثلا .

واستجاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه لهذا التوجيه السامي الذي توالى منذ الأيام الأولى للرسالة ، واستمر طيلة الوحي .

ان الرسول صلوات الله وسلامه عليه حينما فاجاه الوحي ، فعاد يرجف فؤاده الى منزله الطاهر وقال : « زملوني : زملوني » ، نزل عليه قوله تعالى :

« يا ايها المزل ، قم الليل الا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا » (٢) .

لم يقل له سبحانه . يا ايها المزل لا تخشى بأسا ، أو يا ايها المزل لا ترع .

فان ذلك من عند الله وانما كان الرد على رجفة الفؤاد : امرا بالعبادة .

وكذلك الشأن في كل ما يعترض المسلم من ضيق أو كرب أمر بالعبادة مثل :

(٢) المزل : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

(١) النحل : ٩٧

« فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح واطراف النهار لعلك ترضى » (١) .

وهنا علق سبحانه الرضا ، وطمانينة النفس ، وسكينة الفؤاد على التسبيح ، والذكر ، والعبادة ، ويشير الله الى ذلك أيضا فيقول :

« فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود » (٢) .

واستجاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه استجابة كاملة ، للتوجيه الالهي : فجعل من كل أعمال الحياة عبادة ، اذ أنه كان يعملها بسم الله ، لقد جعل صلاته ، ونسكه ، وجعل حياته بأكملها ، بل ومجاليه أيضا لله رب العالمين ، لقد جعل كل كلامه ، وصمته ، وجعل حركته وسكونه ، وجعل نومه ويقظته ، بل جعل انقاسه عبادة الله سبحانه فكان ذلك توجهها به الى الله فكان عبادة له . وهذه الاستجابة الكاملة هي التي جعلت من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أول المسلمين .

أو لهم منذ أن خلق الله العالم الى أن يطوى الله الأرض وما عليها باعتبار ان الدين عند الله - منذ الأزل الى الأبد إنما هو : الاسلام .

لقد صير الرسول صلوات الله وسلامه عليه الحياة كلها عبادة لا تفتقر .

وإذا ما استحالت الى عبادة ، فقد استحالت الى قوة ، أرأيت حينما نجعل من الجهاد عبادة ، ومن العمل عبادة ،

(٢) ق : ٣٦ ، ٢٠

(١) طه : ١٣

ومن العلم عبادة ، ومن الكفاح عبادة ، ومن السعى على المعاش عبادة ، ومن ، ومن ... هل يضعف المجتمع أم يقوى ؟ ، وهل يأمن أهله أم يخافون ؟ ، وهل يسمعون أم يشقون ؟ .

ومهما يكن من شيء ، فقد استجاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه استجابة تامة لما أراد الله سبحانه وتعالى ، ولقد تحدث الله عن هذه الاستجابة ذكرا لها ، فقال سبحانه :

« ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ، ونصفه وثلثه » (١) .

ونذكر الآن بعض الأحاديث التي تصور هذا الجانب من حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ومن وراء أيضا هذا الجانب من حياته صلوات الله وسلامه عليه أهداف :

١ - تأسى المسلمين به قدر الاستطاعة .

٢ - رضاء النفوس وطمانينة الأفسدة ، من الناحية النفسية ، فليس هناك من علاج للشك والحيرة والتردد يعادل فى نفاسته العبادة والنصيحة المجربة التى تسدى للشاك إنما هى « صل » .

فالصلاة خير علاج للاضطراب الدينى ، بل للاضطراب النفسى أيا كان .

ومتى وجسدت النفس المطمئنة - والنفس المطمئنة لا وسيلة لوجودها الا بالعبادة - فان الكثير من الأمراض الجسمية نفسها يزول باقرار اطباء الأجسام أنفسهم ، ثم انه - باقرار اطباء الأجسام أيضا - لا يكون الانسان

الطمئن عرضة لما يتعرض له غير المطمئن من أمراض
جسيمة .

٣ - وهذه الأسوة بالرسول صلوات الله وسلامه عليه
التي نرجوها : ستكون أيضا سببا في تفريج الضيق
المادى .

« ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات
من السماء والأرض » (١) .

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه
حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا
يعملون » (٢) .

وهذه الأحاديث التي نذكرها لا يوجد فيها حديث
ضعيف ، ومع أن الأحاديث الضعيفة يعمل بها في فضائل
الأعمال ، فانا قد تحرينا تحريا كاملا الا نذكر فيما يلي
- الى آخر الكتاب - حديثا ضعيفا .

الصلاة

عن السيدة عائشة رضى الله عنها : « ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه .

فقلت له : لماذا تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ .

قال : « افلا احب ان اكون عبدا شكورا » ١٨ .

اما عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقد قال :

صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء .

قيل : وما هممت به ؟ .

قال : هممت ان أجلس « وادعه » .

ولعل لابن مسعود رضى الله عنه عذره ، فقد كان

صلوات الله وسلامه عليه ، يقرأ في الركعة الاولى مثلا :

سورة البقرة ، وفي الثانية آل عمران ، وكان يطيل القيام

ويطيل الركوع ، ويطيل السجود . كان يطيل كل ذلك ،

حيثما كان يفعلُه منفردا في جوف الليل . اما اذا كان

مع الناس فإنه يخفف .

وقد ورد في السنة الصحيحة : اطالة الرسول صلوات

الله وسلامه عليه القراءة في الركعات التي يصلّيها في الليل ،

وبسبب هذه الإطالة : كانت هذه الركعات لا تتجاوز إحدى عشرة ركعة .

« عن عائشة رضى الله عنها : كان النبي صلى الله عليه وسلم : يصلى من الليل إحدى عشرة ركعة ، فإذا طلع الفجر صلى ركعتين خفيفتين ، ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يجرى المؤذن فيؤذنه » ١ .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم : يستغفر فى صلاته الليلة ويبكى .

ويقص مطرف بن عبد الله عن أبيه قال :
« أتيت النبي صلى الله عليه وسلم : وهو يصلى ، ولجوفه أزيز كآزيز الرجل يعنى يبكى » .
وللصلاة أهمية كبرى يوضحها الرسول صلوات الله وسلامه عليه بقوله :

« أن بين الرجل وبين الشرك والكفر : ترك الصلاة » .
وكان صلوات الله وسلامه عليه يتوضأ لكل صلاة ، عن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ لكل صلاة قيل له : كيف كنتم تصنعون ؟ قال : يجزى أحدنا الوضوء ما لم يحدث » .

والأحاديث التالية : تبين بعض أحوال الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى الصلاة : كان عند الإقامة يقول :
« أقامها الله وأدامها » .

« وكان صلى الله عليه وسلم إذا قام الى الصلاة طأطا رأسه » .

قالت عائشة رضى الله عنها : « لم يكن صلى الله عليه وسلم على شيء من التوافل أشد تعاهدا منه على ركعتي الفجر » .

عن سماك بن حرب قال : « قلت لجابر بن سمرة :
أكنت تجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قال : نعم
كثيرا ، كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلى منه الصبح
حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام » .

« وكان صلى الله عليه وسلم يدخل في الصلاة ، فيريد
اطالتها فيسمع بكاء الصبي ، فيتجاوز في صلاته مخافة
أن يشق على أمه » .

وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ بسورة « الجمعة » في
الركعة الأولى و ب « إذا جاءوك المنافقون » في الثانية .

عن جبير بن مطعم قال : « سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، يقرأ في المغرب ب « الطور » .

وكان صلوات الله وسلامه عليه يقرأ في المغرب
ب « الرسائل عرفا » وأنها آخر ما سمعته من رسول الله
صلى الله عليه وسلم .

« ومن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت :
« ما أخذت » ق والقرآن المجيد « إلا عن لسان رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، يقرؤها كل جمعة على المنبر
إذا خطب الناس » .

كان صلوات الله وسلامه عليه يقرأ في صبح الجمعة :
« ألم تنزل » السجدة ، و « هل أتى على الإنسان حين
من الدهر » رواه الشيخان .

من حديث أبي هريرة ، وإنما كان يقرؤها كاملتين ،
وقراءة بعضهما خلاف السنة .

« كان صلى الله عليه وسلم يقرأ في العيدين وفي
الجمعة ب « سبح اسم ربك الأعلى » و « هل أتاك حديث
الغاشية » .

وكان « يكثّر أن يقول ، فى ركوعه وسجوده :
 « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى » .
 « وكان صلوات الله وسلامه عليه ، يقول بين التشهد
 والتسليم ، اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ،
 وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به
 منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا اله الا أنت » .
 « وفى السجود يقول صلوات الله وسلامه عليه : اللهم
 انى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ،
 وأعوذ بك منك . لا أحصى ثناء عليك أنت كما أئنت على
 نفسك » .

« وعن حذيفة ، كان يقول صلى الله عليه وسلم فى
 ركوعه : سبحان ربى العظيم ، وفى سجوده ، سبحان ربى
 الأعلى » .

« وعن عائشة رضى الله عنها : كان صلى الله عليه وسلم
 يكثّر أن يقول ، فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم
 وبحمدك ، اللهم اغفر لى يتأول القرآن » .

رواه مسلم ، ومعنى يتأول القرآن : يعمل بما أمر به
 كما فى قوله تعالى : « فسبح بحمد ربك واستغفره انه
 كان توابا » (١) فكان صلى الله عليه وسلم ، يقول هذا
 الكلام البديع فى الجزالة المستوفى ما أمر به فى الآية .

الصيام

أما إذا جئنا الى رمضان ، والى الصيام ، على وجه العموم فالأحاديث التالية : توضح بعض الأمر : كما أن أحاديث الصلاة التى روينها ، إنما بينت اشارات ولمحات فقط ، فكذلك الأمر فى أحاديث الصيام .

فرض رمضان فى السنة الثالثة من الهجرة فتوفى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد صام تسعة رمضان .

عن عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا دخل العشر الأواخر من رمضان ، أحيا الليل ، وأيقظ أهله وجد وشد المئزر » .

وعنها قالت : « كان صلى الله عليه وسلم يجتهد فى رمضان ما لا يجتهد فى غيره ، وفى العشر الأخير ما لا يجتهد فى غيره » .

« كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، حتى توفاه الله تعالى » .

« كان النبى صلى الله عليه وسلم يعتكف فى كل رمضان عشرة أيام فلما كان العام الذى قبض فيه اعتكفت عشرين يوما » .

« اذا دخل العشر الاخير طوى فراشه واعتزل النساء
واغتسل بين الاذنين ، وجعل العشاء سحورا » .

« روى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه صلوات
الله وسلامه عليه واصل ، فواصل الناس ، فشق ذلك
عليهم ، فنهاهم رسول صلى الله عليه وسلم أن يواصلوا ،
قالوا : انك تواصل ، قال : لست كهيتكم انى اظلل اطعم
واسقى » .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم لا يفطر الايام البيض فى حضر
ولا سفر ، وهى ثلاث عشر ، وأربع عشرة ، وخمس
عشرة » .

وعن حفصة رضى الله عنها : « أربع لم يكن النبى صلى
الله عليه وسلم يدعهن . صيام عاشوراء ، والعشر - أى
تسع ذى الحجة - والايام البيض من كل شهر : وركعتا
الفجر » .

« كان صلوات الله وسلامه عليه ، يتحرى صيام يوم
الاثنين والخميس » .

« كان النبى صلوات الله وسلامه عليه ، يصوم ثلاثة
ايام من غرة كل شهر » .

ومن العبادة الذكر

« لا يقعد قوم ، يذكرون الله ، الا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان صلوات الله وسلامه عليه . يذكر الله على كل أحيانه » .

« مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره : مثل الحى والميت » . وأفضل الذكر قراءة القرآن :

« ومن قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول : « ألم » حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

« ان الذى ليس فى جوفه شيء من القرآن : كالبيت الخراب » .

« اقرأوا القرآن ، فانه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه » .

وبينما جبريل عليه السلام ، قاعد عند النبی صلى الله عليه وسلم سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ، ولم يفتح قط الا اليوم فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل الى الأرض ، ولم ينزل قط

إلا اليوم فسلم وقال : أبشر بنورين أو تيتهما ، لم يؤتهما
نبي قبلك : « فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن
تقرأ بحرف إلا أعطيته » .

ولأن لا إله إلا الله : أساس التوحيد ، وتعبير عن
التوحيد ، وقد ذكرت بلفظها وبمعناها في القرآن على
أنحاء شتى قال صلوات الله وسلامه عليه :
« أفضل الذكر لا إله إلا الله » .

عن أبي موسى رضي الله عنه قال « قال لي رسول الله
صلى الله عليه وسلم : ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ » .
فقلت : بلى يا رسول الله .

قال : « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقيت إبراهيم
صلى الله عليه وسلم ، ليلة أسرى بي ، فقال : يا محمد
أقرئ أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة : طيبة
الترية ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غرسها : سبحان
الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » .

« وكان صلى الله عليه وسلم يقول بأعلى صوته : لا إله
إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على
كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ،
ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء
الحسن الجميل ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو
كره الكافرون » .

« ومن قال لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك
وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، في يوم مائة مرة
كانت له عسل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت
عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك

حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه » .

وقال : « من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر » .

« وإذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى ، عند دخوله وعند طعامه ، قال الشيطان لأصحابه : لا مبيت لكم ولا عشاء ، فإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله ، قال الشيطان . أدركتم المبيت ، وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه ، قال أدركتم المبيت والعشاء » .

« الطهور . شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله ، تملأ أو تملأ ما بين السموات والأرض ، والصلاة نور والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » .

« ان أحب الكلام الى الله : سبحان الله وبحمده » .
« لأن أقول : سبحان الله والحمد لله ، ولا اله الا الله ، والله أكبر ، أحب الى مما طلعت عليه الشمس » .

« كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

الدعاء

وقال صلوات الله وسلامه عليه : الدعاء هو العبادة .
 أما أحسن أوقات الدعاء فإن الأحاديث التالية تذكر بعضها :

« أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فاكثروا الدعاء ، فقم أن يستجاب لكم » .

قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الدعاء أسمع ؟ قال : جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبة .
 « دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب : مستجابة ، وعند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثل » .

« لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم ، ما لم يستعجل قيل : يا رسول الله ، ما الاستعجال؟ قال : يقول : قد دعوت وقد دعوت فلم أره يستجيب لي فيستحضر عند ذلك ويترك الدعاء » .

« ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى ، بدعوة إلا آتاه الله أياها ، أو صرف عنه من السوء مثلها ، ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم ، فقال رجل من القوم : اذن تكثر ، قال : الله أكثر » .

« كان صلى الله عليه وسلم ، يحب الجوامع من الدعاء ويدع ما سوى ذلك » .

ومن جوامع دعائه ما يلي :

« اتاه رجل فقال : يا رسول الله ، كيف أقول ، حين أسأل ربي » ؟ .

قال : « قل اللهم اغفر لي وارحمني ، وعافني ، وارزقني فان هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك » .

ومن جوامعه صلى الله عليه وسلم :

« اللهم اني أسالك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل اثم ، والفضيلة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار » .

عن أبي امامة رضى الله عنه قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بدعاء كثير لم تحفظ منه شيئا .

قلت : يا رسول الله دعوت بدعاء كثير لم تحفظ منه شيئا ؟

فقال : ألا ادلكم على ما يجمع ذلك كله ؟ . تقول : اللهم انا نسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد ، ونعوذ بك من شر ما استعاذك منه نبيك محمد صلى الله عليه وسلم وأنت المستعان ، وعليك البلاغ ، ولا حول ولا قوة الا بك » اهـ .

« اللهم اني أهوذ بك ، من منكرات الاخلاق ، والأعمال ، والأهواء » .

« اللهم الهمني رشدي ، وأعدني من شر نفسي » .

عن شهر بن حوشب قال : « قلت لأم سلمة رضى الله عنها : يا أم المؤمنين ، ما كان أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ كان عندك ؟ » .

قالت : كان أكثر دعائه : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » اهـ .

« اللهم أصـلح لى دىنى الذى هو عصمة امرى ،
وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى
التى اليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ،
واجعل الموت راحة لى من كل شر » .

« اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » .
« اللهم اجعل فى قلبى نورا ، وفى بصرى نورا ، وفى
سمعى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن يسارى نورا ،
وتحتى نورا ، وأمامى نورا ، وخلفى نورا ، واجعل
لى نورا » .

« ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ،
يقنا عذاب النار » .

ومن ادعيتـه صلوات الله وسلامه عليه فى الصلاة :

عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، انه قال لرسول
الله صلى الله عليه وسلم : علمنى دعاء أدعوه به فى صلاتى .

قال : « قل اللهم انى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ،
ولا يغفر الذنوب الا أنت ، فافقر لى مغفرة من عندك ،
وارحمنى ، انك أنت الغفور الرحيم » .

وكانت صلوات الله وسلامه عليه يقول بين السجدين :
« اللهم افقر لى ، وارحمنى ، واهدنى ، وعافنى ، وارزقنى » .

« عن معاذ رضى الله عنه ، أن الرسول صلى الله عليه
وسلم أخذ بيده وقال : يا معاذ : والله ، انى لأحبك ،
ثم أوصيك : يا معاذ ، لا تدعن فى دبر كل صلاة : أن
نقول : اللهم أعنى على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك » .

وعند الإفطار فى الصوم :

« الحمد لله الذى أعاننى فصمت ، ورزقنى فأفطرت » .

« اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، فتقبل منى ، انك انت السميع العليم » .

عند الكرب : « يا حي يا قيوم برحمتك استغيث » .

وعند الكرب أيضا : « لا اله الا الله العظيم الحليم ، لا اله

الا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم » .

اما اذا كان الكرب شديدا فيحسن ان يكرر الانسان دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم عند عودته من الطائف وهو من روائع بيانه ودقيق مناجاته : « اللهم اليك اشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا ارحم الراحمين ، انت رب المستضعفين ، وانت ربى الى من تكلنى ، الى بغيض يتجهمنى ، أم الى عدو ملكته امرى ان لم يكن بك على غضب فلا ابالى ، ولكن عافيتك هى اوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى اشرقت له الظلمات وصلح عليه امر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك » .

واذا خاف قسوما قال : « اللهم انا نجعلك فى نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم » .

لسداد الدين :

« الا اعلمك كلمات علمنيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان عليك مثل جبل ديناء اداه الله عنك ، قل : اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك واغننى بفضلك عن سواك » .

وعند الخروج من البيت :

« عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال اذا خرج من بيته : بسم الله ،

توكلت على الله ، لا حول ولا قوة الا بالله ، يقال : له هديت وكفيت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان » .

عند النوم واليقظة :

« اذا اخذ أحدكم مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول : اللهم باسمك أموت وأحيا . واذا استيقظ قال : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور » .

عند الأكل : « الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة » .

عند الملابس الجديد :

« اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه ، أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » .

واذا رأى الهلال :

« اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان ، والسلام والاسلام ، ربى وربك الله ، هلال رشد وخير » .

وعندما ينتهى المجلس ويتفرق الحاضرون يقول :

« سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، استغفرك وأتوب اليك » .

وعندما يودع شخصا :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يودعنا فيقول : استودع الله دينك ، وأمانتك وخواتيم عملك » .

ومن العبادة الصلاة على النبي

«صلى الله عليه وسلم»

والصلاة عليه أمر بها الله سبحانه في كتابه فقال :
« ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » (١) ، والصلاة على النبي تكون بأية صيغة ، وكل الصيغ في الصلاة عليه مباركة ، والمأثور منها هي الصيغة التي في التحيات .
والذكر بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم ثماره شتى ، وفوائده عدة ، فضلا عن العبادة نفسها :
ونذكر من هذه الصيغ صيغتين :

الأولى منهما للخروج من الضيق ، ولتيسير المعسر ،
وللخروج من الشدة وللفرج على جميع أنحاء الوصول
إلى الخير وقد أخذناها عن العارف بالله المغفور له الشيخ
أحمد أبو هاشم وهي ما يلي :

« اللهم صلى على سيدنا محمد الحبيب الشفيع
الرءوف الرحيم الذي أخبر عن ربه الكريم أن الله تعالى
في كل نفس مائة ألف فرج قريب ، وسلم » .

أما الثانية : فأننا نسميها الصيغة التجريدية ، لأنها
لا تشعر بمطلب زائد عن العبادة ، وهي قياس موفق

(١) الأحزاب ٥٦:

على ما ذكره الرسول من القيمة العظمى للذكر بـ « سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضاء نفسه وزنة عرشه ، ومداد كلماته » ، والصيغة هي ما يلي :

« اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد عبدك عدد خلقك ورضاء نفسك ، وزنة عرشك ، ومداد كلماتك » .

وقد أخذناها عن المغفور له شيخنا الكبير العارف بالله الشيخ عبد الفتاح القاضى صاحب الضريح المبارك فى شبلنجة من أعمال بنها .

وقد تلقاها هو فى رؤية منامية ، وهى صيغة مباركة ، وأنا لننصح بتكرارها كلما أتبع للانسان ذلك .

إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق

من هديه صلوات الله وسلامه عليه في سبب بعثته .

« إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق » .

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

« إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » .

« بعثت بالحنيفية السمحة » اهـ .

أما هو صلوات الله وسلامه عليه فانه رحمة مهداة الى العالم .

« أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة » .

« تعلمون أني رحمة مهداة ، بعثت برفع قوم ، ووضع آخرين » رفع من تبعوه عند الله ، ووضع أمثال أبي جهل وأتباعه المشركين والملحدين ، وضعهم عند الله وفي ميزان التقوى على أنه :

« ما من شيء أثقل من ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وإن الله يفيض الفاحش البديء » .

والأخلاق لا وزن لها بدون الإخلاص ، ومن هديه صلوات الله وسلامه عليه في ذلك : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته

لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

« ان الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » :

« دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فان الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة (١) » . ومعناه : اترك ما تشك في حله واعدل إلى ما لا تشك فيه .

ان أول الناس يقضى يوم القيامة عليه : رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟ .

قال : قاتلت فيك حتى استشهدت .

قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جريء ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار .

ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ .

قال : تعلمت العلم ، وعلمته ، وقرأت فيك القرآن .

قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال ، عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار .

ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ .

قال : ما تركت من سبيل تحب ان ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال ،

(١) قوله : يريبك : هو يفتح الياء وضمها .

جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى
القى فى النار .

ومن هديه فى موقف المسلم بالنسبة للمنكر يراه :
« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع
فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان » .

ومن المنكر ، السبع الموبقات .

« اجتنبوا السبع الموبقات » .

قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟ .

قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى
حرم الله الا بالحق واكل الربا ، واكل مال اليتيم ،
والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات
الغافلات (١) » . الموبقات المهلكات .

ومن هديه صلوات الله وسلامه عليه فيما يتعلق بصلة
المسلم باخيه المسلم .

« لا يؤمن احدكم حتى يحب لآخيه ما يحب لنفسه » .

« لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى
تحابوا الا ادلكم على شىء اذا فعلتموه تحاببتم ؟ افشوا
السلام بينكم » .

« مثل المؤمنین فى توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم :
كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر
الأعضاء بالسهر والحمى » .

« المؤمن للمؤمن ، كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

« كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وعرضه ،
وماله » .

(١) متفق عليه .

(غن أبى بكر رضى الله عنه : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى خطبته يوم النحر بمنى ، فى حجة الوداع : ان أموالكم ، وأعراضكم ودماءكم ، حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟) .

(سباب المسلم : فسوق ، وقتاله : كفر) .

(اذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار ، قلت : يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟) .

قال : « انه كان حريصا على قتل صاحبه » .

(المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يكذبه ، ولا يخلده ، كل المسلم على المسلم ، حرام عرضه ، وماله ، ودمه ، التقوى ههنا ، بحسب امرئ من الشر ! ان يحقر أخاه المسلم) ! .

(المسلم . أخو المسلم ! لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه ، كان الله فى حاجته ! ومن فرج عن مسلم كربة ، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة . ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة) .

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى عنه الله » .

(من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا : نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر ، يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه .

« ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما ، سهل الله له به طريقا الى الجنة » .

« وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه الا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .
« ومن بطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه » اهـ .

« من سره ان ينجيه الله من كرب يوم القيامة ، فلينفس عن معسر او يضع عنه » .

« كان رجل يداين الناس ، وكان يقول لفتاة : اذا اتيت معسرا فتجاوز عنه ، لعل الله يتجاوز عنا ، فلقي الله فتجاوز عنه » .

عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « ان رجلا زار اخا له في قرية اخرى ، فأرصد الله تعالى له على مدرجته ملكا ، فلما اتى عليه قال : أين تريد ؟ قال أريد اخا لي في هذه القرية قال : هل لك عليه من نعمة تربها عليه ؟ قال : لا ، غير اني أحببته في الله تعالى ، قال : فاني رسول الله اليك : بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه » .

عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله عز وجل يقول يوم القيامة :

يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ؟ قال : يا رب كيف اعودك وانت رب العالمين ؟!

قال : اما علمت ان عبادي فلانا مرض فلم تعده ؟ اما علمت انك لو عدته لوجدتني عنده ؟!

يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمني ، قال يا رب :

كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟ .

يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني ، قال يارب : كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك سقيته لوجدت ذلك عندي ؟ .

ومن هديه صلوات الله وسلامه عليه ، في العلم :

« من سلك طريقا يتقى فيه علما ، سهل الله له طريقا الى الجنة ، وان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع ، وان العالم يستغفر له من السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وان العلماء ورثة الانبياء ، وان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، انما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

« من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » .

وبالنسبة للمرأة :

« لا يخلون رجل بامرأة الا ومعها ذو محرم ، ولا تسافر المرأة الا مع ذي محرم » .

فقال له رجل : يا رسول الله ، ان امرأتي خرجت حاجة ، واني كنت في غزوة كذا وكذا وقال : انطلق فحج مع امرأتك .

« لا يخلون أحدكم بامرأة الا مع ذي محرم » .

ومن هديه صلوات الله وسلامه عليه في الجهاد :
عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه ، عن النبي صلى
الله عليه وسلم قال : « أفضل الجهاد كلمة عدل عند
سلطان جائر » .
عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم :
« من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات
على شعبة من النفاق » .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تضمن الله لمن
خرج في سبيله ، لا يخرج به الا جهاد في سبيلي ، وإيمان
بى ، وتصديق برسلى ، فهو ضامن أن ادخله الجنة أو
أرجعه الى منزله الذى خرج منه بما نال من أجر وغنيمة ،
والذى نفس محمد بيده ، ما من كلم (١) يكلم في سبيل
الله الا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم : لونه لون دم
وربحة ربيع مسك ، والذى نفس محمد بيده ، لولا أن
أشقى على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل
الله أبدا ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ،
ويشقى عليهم أن يتخلفوا عني ، والذى نفس محمد بيده ،
لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ،
ثم أغزو فأقتل » .

(١) والكلم : الجرح .

من توجيهات القرآن

- ١ -

(١) يقول الله تعالى في كتابه العزيز :

« لقد من الله على المؤمنين ، اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين (١) » .

وآيات القرآن كثيرة في هذا المعنى ، تؤكد كلها ان بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت نعمة عظيمة من الله سبحانه على جميع المؤمنين ، وان هذا الفضل من الله سبحانه وتعالى ، انما هو منة كريمة من لدن رب كريم .

ذلك ان هذا الرسول صلى الله عليه وسلم انما هو لسان صدق في تبليغ آيات الله فهو يتلوها على المؤمنين ، انه يتلوها عليهم بعد ان تلاها على نفسه ووعاها وتشربتها روحه فانطبع بها وعاشها ، ومن اجل ذلك كان هذا الرسول صلى الله عليه وسلم مصدر تزكية لهم ، انه وقد أصبح طابعه آيات الله أصبح - من اجل ذلك - مصدر تزكية بالمثال والقدوة والتأسي للمؤمنين .

لقد تزكى بآيات الله ، ولقد زكته آيات الله ، وانه يتلوها وينحياها فهو يبشر بها بقوله : او بتلاوتها ويبشر

(١) آل عمران : ١٦٤

بها بمسلكه ، فهو بقوله يتلوها وهو بمسلكه يرسمها .

ويعلمهم الكتاب ، انه لا يتلو فحسب وانما يعلم
ايضا ، انه يشرح ويفسر ويطبق ويقوم تطبيق الآخرين
اذا انحرفوا ، وانه يعلم القرآن . بعد ان انطبع به وبعد ان
اصبح وهو قرآنا ، لقد اصبح فكرة قرآنا ، واصبحت
عواطفه قرآنا ، واصبحت ارادته قرآنا .

ولقد عبرت عن ذلك السيدة عائشة رضوان الله
عليها خير تعبير واخصره ، حينما سئلت عن خلق رسول
الله صلى الله عليه وسلم فقالت رضوان الله عليها : « كان
خلقه القرآن » .

وما كان يتأتى ان يكون غير ذلك ، وكلمة السيدة
عائشة رضوان الله عليها انما هي كلمة بدهية عند كل
متبصر : فالقرآن كان يظل مبادئ يعتقد الناس انها
مجرد مبادئ نظرية يستحيل تحقيقها في الخارج لو لم
تطبق فعلا ، ولو لم تتحقق واقعا ، وكان لابد من ان
تتحقق بالفعل ، وكان لابد صورة حية تتمثل فيها هذه
المبادئ : تتمثل فيها ذاتيا ، وتتمثل فيها من جهة
تطبيقها على الغير وقيادة الغير الى الاخذ بها في صورة
تقترب منها بقدر الاستطاعة .

ولو لم يكن الامر كذلك : لظل الناس يؤمنون بانها
مجرد مبادئ .

(ب) بيد ان هذه الصورة الخالدة للأخلاق ، كما
يحب الله سبحانه ، لبنى الانسان قد تحققت بالفعل :
حققتها رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، وحققتها في
ذاته ، وحققتها في مجتمعه ، حققها سلوكا ، وحققتها
واقعا ، هو في نفسه على اكمل ما يكون التحقيق تطبيقا

في مجتمعه على الصور التي استطاعها هذا المجتمع .
ونقول : على الصورة التي استطاعها هذا المجتمع لأن
لكل نظام من النظم حدا أدنى لا يتأتى أن يكون النظام
دونه ، وحدا أسفى يتسامى نحوه المخلصون .

ولقد تحققت الصورة الإسلامية في حدها الأسفى في
الرسول صلى الله عليه وسلم وكان بذلك - بنص القرآن
- أول المسلمين . وترسم الآيات القرآنية :

كيف ، ولم ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم أول
المسلمين ؟ يقول الله تعالى :

« قل أن صلاتى ونسكى ومحيساى ومما تلى الله رب
العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » (١) .

لقد كانت أعماله وحياته كلها بل ومماته ، لقد كان
كيانه كله حركة وسكونا حياة وموتا لله رب العالمين ،
فكان بذلك أول المسلمين .

ولقد تحققت الصورة على تفاوت لا ينزل عن حدها
الأدنى فى آلاف من الصحابة رضوان الله عليهم .

لقد وجد المجتمع الإسلامى بالفعل :

ولقد انتفت بذلك فكرة هؤلاء الذين راوا فى الماضى
أو يرون فى الحاضر أن الإسلام مبادئ لا تطبق ، مبادئ
نظرية ، مبادئ خيالية يستحيل تطبيقها .

لقد تحقق الإسلام بالفعل ، فوجد مجتمعا أسلم
نفسه لله ، وأن مجتمعا يسلم نفسه لله لا يتأتى أن
تتمخض الإنسانية عن خير منه .

هذا المجتمع الذى وجد انما كان ثمرة من ثمار

جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم وكفاحه في أن يخرج
بالفعل الصورة التي أوحاها الله إليه ، لقد كان أثرا
لتلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم آيات الله ولتزكية
الرسول صلى الله عليه وسلم لمن حوله بمثله القرآني ،
ولتعليمه صلوات الله وسلامه عليه القرآن لمن حوله .

وتشربت روح رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن
وامتثلات به وصفت بصفاته ، وتزكت به واستنارت
بنوره ، ففاضت بالحكمة أثرا من آثار الهداية الثامنة
ونتيجة للنور يغمر القلب ويتلأأ في الفؤاد فكان
الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الكتاب ويعلم الحكمة ،
وما الحكمة إلا أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم
ينير بها قلوبا ويرشد بها عقولا ويقرب بها عباد الله إلى
الله ، وكما أن الكتاب من عند الله ، فإن الحكمة أيضا من
عند الله ، يقول الله تعالى :

« وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن
تعلم وكان فضل الله عليك عظيما (١) » .

وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينطق عن
الهوى أن هو إلا وحي يوحى بآيات يتلوها ، وكتاب الله
يعلمه ، والحكمة التي أنزلها على قلبه يعظ بها .
يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه :

فذكر الله الكتاب وهو القرآن ، وذكر الحكمة فسمعت
من أرضي من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة
رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا يشبه ما قال والله أعلم .

لأن القرآن ذكر وأنبعثه الحكمة ، وذكر الله منة على

خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة فلم يجز - والله أعلم -
ان يقال : الحكمة ها هنا الا سنة رسول الله .

وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله وأن الله افترض طاعة
رسوله وحتم على الناس اتباع أمره ، فلا يجوز أن
يقال : لقول فرض الا لكتاب الله ثم سنة رسوله ، لما
وصفنا من أن الله جعل الايمان برسوله مقرونا بالايمان به .

وسنة رسول الله مبينة عن الله معنى ما أراد دليلا على
خاصة وعامة ثم قرن الحكمة بها بكتابه فاتبعها إياه ولم
يجعل هذا لاحد من خلقه غير رسوله .

(ج) هذه الصورة التي ترسمها الآية الكريمة التي
صدرنا بها هذا المقال - هي الصورة التي تمنها سيدنا
ابراهيم ودعا الله سبحانه بها حينما كان يرفع القواعد
من البيت واسماعيل فقال عليه السلام :

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك
ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك انت العزيز الحكيم » .

ولقد صادفت دعوة سيدنا ابراهيم ما قدره الله ازلا ،
لقد وافقت التقدير الالهي الأزلي الذي أراد سبحانه به
أن يكمل الدين ويتم النعمة على المؤمنين ، وأن يكون خاتم
الاديان ، هو الدين ، الأزلي الخالد الذي لا دين سواه ،
والذي يرضاه الله ولا يرضى غيره وهو الاسلام .

« اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتي
ورضيت لكم الاسلام دينا » (١) .

« أن الدين عند الله الاسلام » (٢) .

ولا يتأتى في عرف المنطق وفي منطق الحق وفي بداهة

(٢) جزء من آية ١٩ آل عمران .

(١) المائدة : ٣

العقول أن يكون الدين الخالد شيئاً آخر غير اسلام الوجهه .
وما دام الرسول صلى الله عليه وسلم أول المسلمين ،
وما دام الدين عند الله هو الاسلام ، فالرسول اذن او
المتدينين على الاطلاق : انه وصل الى الدرجة التى سبق
بها جميع من مضى ، وسبق بها جميع ابناء عصره ، وسبق
بها ما سيأتى بعده ، انه أول المسلمين فى الماضى البعيد
والماضى الذى يتبدى منذ بداية الانسانية .

وما من شك فى أن آدم عليه السلام كان مسلماً ولكنه
لم يكن أول المسلمين ، ولقد كان نوح مسلماً ولكنه لم
يكن أول المسلمين وهكذا . كان الانبياء جميعاً صلوات
الله وسلامه عليهم ، من المسلمين . ولكن لم يكن أحد
منهم أول المسلمين وما كان يتأتى أن يكون أحدهم أول
المسلمين ، لأن الدين الذى جاءوا به صلوات الله عليهم
وسلامه - وأن كان اسلاماً - فإن الصورة الكاملة التامة
للالسلام انما هى : القرآن .

« وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من
الكتاب ومهيماً عليه » (١) .
ويقول سبحانه : « واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من
ربكم » (٢) .

وهو أول المسلمين فى الحاضر ، وهو أولهم فى
المستقبل ، الى أن تتبدل الأرض غير الأرض والسموات ،
والى ما بعد ذلك من آيات الله السرمدية ، صلوات الله
وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله .

يقول الله تعالى عن طابع الرسالة الاسلامية وعن طابع الرسول صلى الله عليه وسلم : « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » (١) .

لقد كان ارسال الرسول صلى الله عليه وسلم ، رحمة ، اذا نظرنا الى الرسالة الاسلامية ، وكان ارساله رحمة اذا نظرنا الى شخصيته . يقول ، صلوات الله وسلامه عليه : « انما انا رحمة مهداة » .

لقد كان رحمة مهداة من حيث الرسالة ، وكان رحمة مهداة من حيث الذات .

لقد كان ينتسب صلوات الله وسلامه عليه الى الرحمن رسالة ، وينتسب الى الرحمن صفات ، وكان ينتسب الى الرحيم رسالة ، وينتسب الى الرحيم صفات ، انه رسالة وصفات ، يسير في حياته ، باسم الله الرحمن الرحيم ، مبشرا « باسم الله الرحمن الرحيم » ، انه نبي الرحمة ، وانها رسالة الرحمة ، والله سبحانه وتعالى قد ربي رسوله على عينه واصطنعه لنفسه فنشأه على الرحمة فهو صلوات الله عليه وسلامه رحمة منذ ميلاده .

واننا اذا اردنا تعبيرا مجعلا جامعا لمعانى الرحمة التي اتصف بها نبي الرحمة ، فاننا نجد في وصف السيدة خديجة رضوان الله عليها للرسول صلى الله عليه وسلم ، حينما فاجاه الوحى وحدثها به وقال لها : « لقد خشيت على نفسى » .

فقال رضى الله عنها ، قورا : « كلا والله ما يخزيك

الله ابدا ، انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب
المعلم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » .

ان هذا الوصف الصادق للرسول صلى الله عليه وسلم
انما يعبر في كل جملة من جملة عن الرحمة (وهو وصف
اتسم به الرسول صلى الله عليه وسلم طيلة حياته)
والآية القرآنية .

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » لا تخصيص فيها ،
لا من ناحية نوع الرحمة ولا من ناحية موضوع الرحمة .
ويشرح هذه الآية في شمولها وعمومها ، يشرحها في دقة
وفى عمق موقف كريم من مواقف التوجيه النبوى . لقد
كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتحدث عن الرحمة
ويدعو اليها ويعرف بمنزلتها من الدين . فقال بعض
الصحابه رضوان الله عليهم . « انا نرحم ازواجنا
وأولادنا وأهلينا » .

فلم يرض هذا القول رسول الله صلى الله عليه وسلم
لانه فهم قاصر محدود لما ينبغى أن يكون عاما شاملا ،
انه تقييد للمطلق ، ولذلك رد عليه الرسول صلى الله
عليه وسلم بقوله : « ما هذا أريد ، انما أريد الرحمة
العامه » . وما من شك في أن من الرحمة : رحمة
الأزواج والأولاد والأهل ، وقد حث على ذلك رسول الله
صلوات الله وسلامه عليه .

بيد أن ما أراده الرسول صلى الله عليه وسلم انما هو
أن تتغلغل الرحمة في الكيان الانسانى كله حتى تصبح
وكانها من فطرته ، وطبيعته وجبلته فيكون الانسان
وكانه قبس من الرحمة الالهية ينثرها اذا سار وينثرها
اذا جلس ، وينثرها أينما كان ، وينثرها حيثما حل .
واذا كان كذلك فانه يكون قد حقق الطابع العسائم

للرسالة الإسلامية : رحمة للعالمين .

ولقد حقق الرسول صلى الله عليه وسلم ، هذا الطابع بقوله ، وحققه بفعله ، ولقد كانت الرحمة وهى طابع للرسالة الإسلامية هى طابع تصرفاته وانظر الى الحادثة التالية ، الحادثة التى نزل فيها قوله تعالى :

« ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » .

وهى : لما هزم الله المشركين يوم بدر وقتل منهم سبعون ، وأسر سبعون ، استشار النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعلياً فقال أبو بكر : يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والاخوان وانى أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكننى من فلان « قريب لعمر » فأضرب عنقه وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه وتمكن حمزة من فلان أخيه « يعنى العباس » فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليس فى قلوبنا هودة « أى ميل » للمشركين .

أما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم فقد كان معروفاً يعرفه كل من عرف رسول الله وعرف طابعه وعرف له هذا الطابع الرسالة الإسلامية أنه أخذ الفدية ، ولقد كان أبو بكر رضى الله عنه أمثل الناس فى الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فكان اتجاهه من اتجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا الاتجاه لرفيق الغار أيده الله سبحانه ، بل زاده عليه حينما خير رسوله فيما بعد بأنه اذا وضعت الحرب

أوزارها له أن يمن وله أن يأخذ الفداء .

« فاما منا بعد واما فداء » .

وقبل بدر أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم الفداء فقد نادى في سرية عبد الله بن جحش قبل بدر بنحو عام .

فلما كانت بدر سار رسول الله صلى الله عليه وسلم على سنته ، وتصرف مستلهما طابع الرسالة التي أرسله الله بها ولكن بعض الصحابة رضوان الله عليهم نظر الى موضوع الفداء نظرة مادية وأخذ في تقدير الفدية وزنا وكيلا وقيمة ومقدارا وكما وكيف ، وأخذ في تكييف الفدية بحسب الغنى والفقر ، ان بعض الصحابة نظروا الى المسألة نظرة مادية فنزل قول الله سبحانه وتعالى ، مصححا الوضع لهؤلاء الذين لم يضعوا الامور في وضعها الصحيح ولم يزونها بميزان التوجيه الالهى .

يقول الخطيب القسطلانى فى كتابه « المواهب اللدنية » فى ذلك . « فيه بيان ما خص به وفضل من بين سائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام فكانه قال ما كان لنبى غيرك » اهـ .

ويقول القاضى بكر بن العلاء : « اخبر الله تعالى نبىه فى هذه الآية أن تأويله وافق ما كتب له من احلال الفنائم والفداء » اهـ .

والتوجيه الالهى فى خاتمة رسالات السماء انها رسالة رحمة ، ولرسالة الرحمة ميزات وخصوصيات تفيض عن الرحمة نفسها وما كان لنبى من قبل نبى الرحمة أن يكون له أسرى حتى يشخن فى الارض . فلما كانت رسالة الرحمة ولما كان نبى الرحمة أباح الله له التصرف بحسب الرحمة وهو الفداء ، ثم زاده تكريما على تكريم

حيث زاده رحمة الله على رحمة ، فجعل له الخيار بين
المن والفداء .

وان كل نظرة تفيض عن هذه النظرة وتصدر عنها
لا ترى ولا تحس ولا تشعر بالجانب المادى ، ولكنكم
يا هؤلاء الذين نظرتم النظرة المادية تريدون مرض الدنيا
وتتخلدونه مقياسا انه ليس بمقياس أن المادة ليست في
موازين الله مقياسا ، فان الله يريد الآخرة ويريد للدين
آمنوا به وبرسوله أن تكون مقاييسهم مستمدة
من كتاب الله ومن توجيهات رسوله صلى
الله عليه وسلم : « لقد كان لكم فى رسول الله
أسوة حسنة » (١) وانه لمن أفضال الله على رسوله انه
سبحانه لم يقل : « أسوة » وحسب وانما قال : « أسوة
حسنة » وقال سبحانه : « أسوة حسنة لمن كان يرجو
الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

ثم ان الله سبحانه لم يأمر المسلمين برد الفدية ،
« وما كان أيسر ذلك ولم ينقض الله سبحانه ما أبرمه
رسوله البرأ عن أن يسير الا على بصرة ، والمنزه عن أن
يهدى الا الى الصراط المستقيم صراط الله .

هذه الفطرة الرحيمة حملت الرسول صلى الله عليه
وسلم على أن يكافح طيلة حياته فى غير فتور ولا هوادة
لبداية الانسانية وأسعادها . لقد كان صلى الله عليه
وسلم يشق على نفسه فى سبيل ذلك ويحملها من الأمور
ما لا تطيق حتى لقد قال الله له .

« فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » (٢) .

وقال سبحانه : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان
لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » (٣) .

ولقد رسم الرسول صلوات الله عليه موقفه من الناس ومثله بموقف رجل يحاول ما استطاع أن يمنع الناس عن التردى في نار يتهافتون على الاحتراق فيها ولعل الحادثة التالية تصور بعض جوانب التربية الرحيمة التي كان يستعملها الرسول : صلى الله عليه وسلم في سلوكه مع الناس وهى وان كانت خاصة برجل معين فانها ليست بمقصورة عليه بل لها صفة العموم .

جاء أعرابى يوما يطلب منه شيئا فأعطاه صلى الله عليه وسلم ثم قال له مستفسرا متوددا : أحسنت اليك ! فقال الأعرابى لا ، ولا أجملت ، ففضب المسلمون وقاموا اليه ، فأشار اليهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن كفوا ، ثم قام ودخل منزله وأرسل الى الأعرابى وزاده ثم قال : « أحسنت اليك » .

فقال الأعرابى : نعم جزاك الله من أهل وعشيرة خيرا فقال النبى صلى الله عليه وسلم : انك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى شيء من ذلك . فان أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك .

وتحدث الأعرابى اليهم وطابت انفس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول الأعرابى ، فقال صلوات الله وسلامه عليه هذا التعقيب الرائع :

وان مثلى ومثل هذا الأعرابى : كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدها الا نفورا فناداهم صاحب الناقة أن خلوا بينى وبين ناقتى ، فانى أرفق بها واعلم ، فتوجه اليها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها هونا هونا حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها .

وانى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه
دخل النار . ا ه . لقد كانت نفس رسول الله صلى الله
وسلم رحيمة حتى مع الاعداء .

لقد قيل له يوم أحد وهو فى اشد المواقف حرجا لو
لعنتهم يا رسول الله ، فقال ، صلوات الله وسلامه عليه :
« اما بعثت رحمة ولم بعث عدا » .

وكان اذا سئل ان يدعو على أحد عدل عن الدعاء عليه
الى الدعاء له بالهداية والصلاح ، وكان يريد باستمرار
ان يشعر المسلمون بل الناس على وجه العموم بالتعاطف
فيما بينهم . سئل مرة : اى الناس أحب اليك ؟ فقال :
انفع الناس للناس : وسئل . اى الأعمال أفضل ؟ فقال :
« ادخال السرور على المؤمن » وقال : « اكمل المؤمنين
ايمانا أحسنهم خلقا والطفهم بأهله » .

وكانت رحمته . صلوات الله وسلامه عليه عامة
شاملة ، حتى لقد تناولت الحيوان الأعجم لقد قال -
- بحث على الشفقة بالحيوان - « بينما رجل يمشى
فاشتمد عليه العطش ، فنزل بئرا فشرب منها . ثم خرج
منها فاذا هو بكلب يلهث الثرى » يأكل الثرى من شدة
العطش » فقال : لقد بلغ بهذا الكلب مثل الذى بلغ بى
فملا خفه ، ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر
الله له فغفر له « قالوا يا رسول الله . وان لنا فى البهائم
أجرا ! قال : « نعم ، لكم فى كل ذات كبد رطبة أجر » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « دخلت النار امرأة فى
هرة حبستها فلا هى أطعمتها وسقتها ولا هى تركتها تأكل
من خشاش الأرض » .

لقد كان صلى الله عليه وسلم رحمة، وكان رحمة للعالمين .

فهرس

٨	• • • • •	مقدمة
٣١	• • • • •	النسب الشريف
٤٥	• • • • •	نبى التوبة
٥٦	• • • • •	الوحى
٦٨	• • • • •	اقرا • • والتربية
٧٠	• • • • •	اقرا • • والاخلاص
٧١	• • • • •	اقرا • • والعلم
٧٥	• • • • •	العلم فى الاسلام أوسع دائرة
٧٧	• • • • •	الجهد بالدعوة واثبات الرسالة
٩٤	• • • • •	الاسراء والمعراج
١١٠	• • • • •	الهجرة
١٢٢	• • • • •	الهجرة من زاوية أخرى
١٢٦	• • • • •	الجهاد
١٣٤	• • • • •	النبى العابد
١٤٠	• • • • •	الصلاة

العدد القادم

فن الحياة

تأليف : أندريه موروا

ترجمة : أحمد فتحي

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة - ص ٠ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم علي نحاس
المملكة العربية السعودية

THE ARABIC PUBLICATIONS

7. Bishopstrove Road

London S.E. 26

ENGLAND

انجلترا :

M. Miguel Maccul Cury.

B. 25 de Maroc, 994

Caixa Postal 7406,

Sao Paulo. BRASIL.

البرازيل :



هذا الكتاب

للشيخ الجليل الامام الاكبر الدكتور عبد الحليم محمود عليه رحمة الله
منهاج فريد خاص به في تناول موضوعات الاسلام فهو يصدر عن علم
غزير واطلاع واسع ، ولكن عماده الاكبر على ايمانه العميق واحساسه
الصوفي بالاسلام وفضائله .

وهو في هذا الكتاب يحدثنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
حديثا يجمع بين كلام أصحاب الحديث من الفقهاء ، وأصحاب القصص
من المؤرخين وأصحاب الوجد من الصوفية ، فقد كان رحمه الله صوفي
الطبع والمزاج يحس الدين كما يعرفه .

هنا يرى الامام الاكبر صورا من حياة نبي الاسلام الاعظم ويروى
أحاديث كريمة يفسرها تفسيرا مبتكرا ويورد آيات قرآنية يستعين بها
في رسم الصورة التي أراد رسمها لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهو يرسل ذلك كله ارسلًا سهلا لا تكلف فيه ، وقد كانت تلك
خصائصه التي عرف بها ، فقد وعى قلبه العلم الاساسي
اذا تحدث لجا الى البساطة التامة دون أن يحاول
القارئ الاحساس بعلمه الغزير واطلاعه الواسع ،
كتاباته رحمة الله عليه من أسرع الاحاديث مدخا
والقلوب ، ومن هذه الناحية كان من اكبر دعاة الاسلا
على يديه الوف .

كتاب بديع بقلم علامة مسلم عظيم ، والموض
الموضوعات الى قلوب المسلمين موضوع الرسول صل

Bibliotheca Alexandrina



0412547

